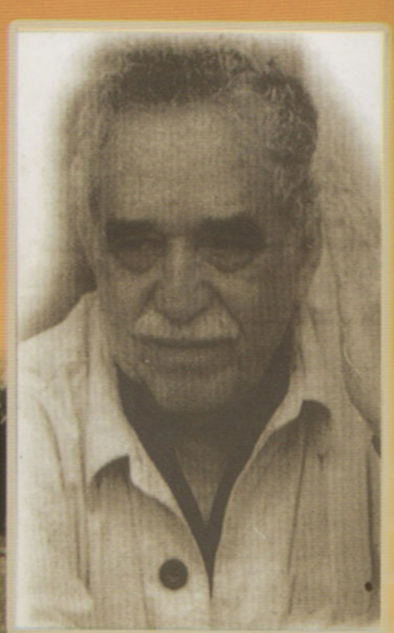
جابرييل غارسيا ماركيز

الحائز على جائزة نوبل للآداب









جابرييل غارسيا ماركيز
الحائز على جائزة نوبل للآداب

مهمة سرية في التشيلي

مغامرات ميغيل ليتين

ترجمة : أليفانا إلياس الوارديني
مراجعة : الدكتور محمد العبد حمود

دار العودة . بيروت




مكتبة
الفكر الجديد

الفهرس



ـ أزهار أزلية في بلازا سيباستيان أسيفيدو .
ـ ليس سهلاً أن تحلق ذقنك في كونسبسيون .
ـ جنة حب في الجحيم .
ـ بار تنام فيه طيور النورس .
٦ ـ ميتان خالدان أبداً : ألينيدي ونيرودا .
ـ ميتان لا يزالان على قيد الحياة .
ـ الأرض تهتز في « ايسلا نيغرا » .
ـ غراتسيا ذهبت إلى السماء .
٧ ـ البوليس يطارد : أخذت الحلقة تضيق .
ـ المسافة بالضبط : عشر رقصات بوليرو .
ـ الحلقة بدأت تضيق .
ـ كيف ترى فلقة عجيزتي يا سيدي ؟
٨ ـ كن مستعداً : هناك جنرال قادر على سحق كل شيء .
ـ جدة لها « باراشوت » .
ـ المطاردة الطويلة للجنرال « الكتريك » .
ـ من يستطيع أن يتصور الشرطة ؟
٩ ـ حتى أمي لم تستطع التعرف علي .
ـ جاء ليتين صور ثم ذهب .
ـ خذ صورة عن مستقبل البلاد .
١٠ ـ خاتمة سعيدة للطف البوليس .
ـ معتوه في مطعم .
ـ أما أن ترحل وإما أن تختفي .
ـ شخصيتان غير مخولتين تبحثان عن مؤلف .
خاتمة .



مقدمة

في بداية العام ١٩٨٥ أمضى المخرج السينمائي التشيلي ميغيل ليتين ستة أسابيع في التشيلي ، وكان اسمه مدرجاً في قائمة الخمسة آلاف منفي الذين منعوا من دخول البلاد منعاً باتاً ، وذلك بطريق التنكر والتخفي . وقد استطاع أن يصوّر هناك ما يربو على المئة ألف قدم من الشريط السينمائي حول وضع وطنه بعد اثنتي عشر عاماً من الحكم العسكري الديكتاتوري . دخل التشيلي بجواز سفر مزوّر بعد أن غيّر له فنّانو التزيين وجهه ؛ وقد تزيّ بزي رجل أعمال ارغوائي وتصرف تصرفه . وبحماية مجموعات من المقاومة السرية استطاع ليتين أن يتنقل في البلاد طولاً وعرضاً مديراً عمل ثلاث مجموعات أوروبية لتصوير الأفلام كانوا قد دخلوا التشيلي بصورة شرعية بحجة أعمال سينمائية مختلفة ، هذا بالإضافة إلى ست مجموعات من السينمائيين الشباب الذين ينتمون إلى المقاومة التشيلية . ولقد استطاعوا أن يقوموا بالتصوير حتى داخل مكتب



الرئيس بينوتشه الخاص . وكانت النتيجة فيلماً مسلسلاً للتلفزيون مدته أربع ساعات وآخر إنتاجاً سينمائياً مدته ساعتان بدأ عرضهما الآن في مختلف أنحاء العالم .

وفي بداية عام ١٩٨٦ في مدريد حين حدثني ميغيل ليتين عمّا قام به وكيفية ذلك تحقّق لي أن وراء فيلمه هذا فيلماً آخر ربما لن يبصر النور أبداً . وهكذا وافق على تسجيل استجوابات مضنية اقتضت شريطاً مسجلاً مدته ١٨ ساعة . وهذا التسجيل أحاط بالمغامرة الإنسانية الكاملة بكل ما تضمنته من مدلولات مهنية وسياسية قمت أنا بتكثيفها في عشرة فصول .

إن بعض الأسماء قد بدِّلت وكثير من الظروف قد حوِّلت لحماية هؤلاء الذين لا يزالون يعيشون في التشيلي . وقد فضّلت أن أبقي رواية ليتين بضمير المتكلم لأحافظ على اللهجة الشخصية والتي هي أحياناً خاصة مميزة ، دون أي زيادات درامية أو ادعاءات تاريخية من قبلي . ولكن أسلوب النص النهائي هو بالطبع أسلوبي أنا ، إذ أن صوت الكاتب غير قابل للاستبدال سيما وأن عليه أن يكثف حوالي ٦٠٠ صفحة في أقل من مئتين . ومع ذلك فقد حاولت أن أحافظ على العبارة الاصطلاحية التشيلية المميزة للأصل ؛ وفي كل الحالات أن أحترم طريقة تفكير القاص التي لا تتطابق دوماً وطريقة تفكيري .

صحيح أن هذا الكتاب في طبيعته وفي طريقة عرضه هو نص تقريري لكنه في الحقيقة هو أكثر من ذلك : هو إعادة بناء عاطفية لمغامرة هي دون شك في حقيقتها المطلقة أكثر عمقاً وتأثيراً من



ـ وهذا ما يدرك فعلياً ـ الغاية الأساسية . ألا وهي صنع فيلم هزيء من مخاطر القوة العسكرية . وقد قال ليتين نفسه : « هذا العمل ربما لم يكن أكثر أعمال حياتي بطولة ولكنه أكثرها شأناً » . وأنه لكذلـك ، وأعتقد أنه هنا تكمن عظمته .

غبريال غارسيا مركيز




مكتبة
الفكر الجديد

أيها القائد الأسمر
المهزوم في بلادي
فليبق جناحاك الأبيان
يحلقان عالياً فوق
الموج الأخير ، موج الموت .

بابلو نيرودا



كانت طائرة شركة « لاديكو » الرحلة رقم ١١٥ التي أقلعت من أسونسيون في البراغواي ، على وشك أن تحطّ في مطار بوداهيول في سانتياغو ، متأخرة حوالي الساعة عن موعد وصولها . وكان الأكونكاغوا إلى اليسار الذي يرتفع ٢٣,٠٠٠ قدم ، قنّة فولاذية تسبح في ضوء القمر . أخفضت الطائرة جناحها الأيسر بخفة هائلة ، ثم استقامت مخرجة صرير معدنٍ كئيب ، وإذ حطّت قبل أوانها على الأرض قفزت ثلاث قفزات كحيوان الكنغر . أنا ، ميغيل ليتين ، ابن هرنان وكرستينا ، مخرج سينمائي ، أعود إلى وطني بعد اثنتي عشرة سنة من النفي ، ومع ذلك ما زلت منفياً داخل نفسي إذ أنني أعود بهوية مزوّرة ، وبجواز سفر مزوّر وحتى بزوجة مزوّرة . كان وجهي ومظهري الخارجي قد تبدّلا عن طريق الماكياج وطريقة ارتداء الثياب إلى درجة أن أصدقائي المقربين لم يستطيعوا التعرف عليّ حتى في وضح النهار بعد عدة أيام .

قلائل جدّاً في هذا العالم كانوا يعرفون سرّي ومنهم تلك التي كانت معي على متن الطائرة وهي إيلينا ، حركية شابة جذابة ، عينتها منظمة المقاومة التشيلية التي تنتمي إليها ، لتكون صلة الوصل بيني وبين الشبكة السرية ، ولتقوم باتصالات سرية ، وتقرّر أفضل أمكنة الاجتماع ، وتخمّن المواقف التعبوية ، وترتب المواعيد، وللسّهر على سلامتنا . ومع أنها كانت تعيش في أوروبا إلّا أنها قامت برحلات عدة إلى التشيلي في مهمات سياسية كهذه . وفي حال اكتشف البوليس أمري ، أو اختفيت ، أو لم أقم بلقاءات مبرمجة قبلاً ، كان عليها أن تنشر نبأ وجودي في التشيلي على الملأ لاستثارة الحذر العالمي . ومع أن أوراقنا الرسمية لم تشر إلى أية علاقة زوجية تربط بيننا إلّا أننا قد انطلقنا من مدريد كثنائي متحابين



قاطعين حوالي نصف العالم حاطين في سبع مطارات . ولكننا قررنا في آخر طرف من رحلتنا وكان من ريو دي جانيرو بطريق البرغواي أن نجلس في الطائرة متباعدين . وأن نغادر الطائرة كغريبين . فقد كنا خائفين من أن جهاز أمن الهجرة التشيلية سيكون متشدداً جدّاً في المطار بحيث سيكتشفني حالاً . فإذا ما حدث ذلك كان على إيلينا أن تجتاز أمن الهجرة بمفردها ثم تبلّغ منظمتها السرية . وإذا تجاوزنا أمن المطار بسلام سنعود وننضم ثانية كثنائي عند مخرج المطار .

خطتنا على الورق بدت سهلة ولكنها في الواقع العملي كانت مخاطرة . وكانت الخطة تقضي بتصوير فيلم وثائقي ، بطريقة سرية ، عن حالة اليأس المتزايد في التشيلي بعد اثنتي عشرة سنة من حكم الجنرال أوغيستو بينوتشه الدكتاتوري . لم أستطع طرد فكرة القيام بإخراج هذا الفيلم من رأسي ؛ فقد أضعت صورة وطني في ضباب من الحنين إلى الوطن . إن التشيلي التي أذكر لم تعد موجودة . وليست هناك وسيلة لمخرج سينمائي كي يكتشف ثانية بلده الضائع أضمن من العودة إليه وتصويره من الداخل . وفي سنة ١٩٨٣ أصبح الحلم أكثر إصراراً عندما قامت الحكومة التشيلية بنشر لوائح لمنفيين يسمح لهم بالعودة ؛ ولكن اسمي لم يظهر على أي منها. وقد وصل الحلم بعد ذلك إلى قمة الحيرة واليأس عندما نشرت الحكومة التشيلية قائمة مؤلفة من خمسة آلاف من الذين لا يزالون لا يستطيعون العودة ، وكان اسمي هذه المرة من بينهم . وعندما دخلت خطة دخولي التشيلي خلسة وبطريقة غير شرعية ، حيّز الواقع وبالصدفة تقريباً ودون توقّع مني كنت قد حذفتها من رأسي منذ أكثر من سنتين .

وفي خريف سنة ١٩٨٤ وكنت قد نزلت في سان سبستيان



الباسكية مع زوجتي وأولادي الثلاثة لإخراج فيلم سينمائي ، وكغيره من الأعمال في تاريخ السينما السري كان قد ألغي من قبل المنتجين قبل أسبوع فقط من بدء برمجة التصوير . وهكذا أصبحت فجأة عاطلاً عن العمل ، فعاودتني الفكرة القديمة عن إخراج فيلم عن التشيلي . وفي إحدى الليالي وأثناء تناولنا العشاء في مطعم محلي ذكرت حلمي لبعض الأصدقاء . وقد نوقشت الفكرة على الطاولة باهتمام كبير ليس فقط لمدلولات الفيلم السياسية الواضحة وإنّما أيضاً للمتعة التي يجدها كلٌ منّا في تحدي بينوتشه والهزء منه . ولكن أحداً لم يعتبر المشروع أكثر من جموح خيال رجل منفي . ومع ذلك وأثناء العودة إلى البيت خلال شوارع المدينة النائمة تأبّط ذراعي المنتج الإيطالي لوتشيانو بالدوتشي الذي لم يكد ينبس ببنت شفة على الطاولة . وتنحى بي جانباً بشكل يبدو غير مقصود وقال لي : « إن الرجل الذي تطلبه ينتظر في باريس » . وبالفعل إن الرجل الذي كنت احتاج إليه كان ذا مركز رفيع في المقاومة التشيلية ، وكانت خطته تختلف عن خطتي فقط في التفاصيل الجزئية الصغيرة . وبعد جلسة استمرت أربع ساعات في جو قهوة اللاكوبول الحيوي في فرنسا وبمشاركة بالدوتشي المتحمسة كانت كافية لتجسيد حلم يقظة طالما راود مخيلتي بكل تفاصيله الجزئية في ليالي المنفى المثقلة بالأرق .

كانت الخطوة الأولى تقتضي إحضار ثلاث مجموعات لتصوير الأفلام إلى التشيلي : واحدة ايطالية ، وأخرى فرنسية وثالثة من جنسيات متعددة وإنما ذات أوراق ثبوتية هولندية . وكل شيء يجب أن يكون شرعياً . وعلى كل فريق أن يدخل التشيلي بأوراق ثبوتية شرعية وبأذونات مسبقة وأن يتصل بسفارته حال وصوله . وكانت



١

المجموعة الايطالية برئاسة امرأة صحافية مهمتها تصوير فيلم وثائقي عن المهاجرين الايطاليين في التشيلي وخاصة جواكينو توسكا ، مهندس قصر المونيدا المعماري . أمّا المجموعة الفرنسية فكان عليها الحصول على إذن بتصوير فيلم أيكولوجي (علم التبيؤ) يدرس العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها ، وذلك عن جغرافية التشيلي . والمجموعة الثالثة تقوم بدراسة الهزات الأرضية التي حدثت منذ مدة قريبة ، ولم تكن أية مجموعة تعلم بوجود الأخرى . ولم يكن أي عضو من أعضائها يعرف مسبقاً هدف التصوير الحقيقي أو أنني أنا الذي أدير العمل من وراء الكواليس سوى المشرف على كل مجموعة وكان عليه أن يكون محترفاً في هذا الحقل وأن يكون لديه خلفية سياسية وأن يكون واعياً تماماً للمخاطر التي تحيط بالعمل . وقد وفقت للقيام بذلك بزيارة قصيرة إلى كل من بلدان هذه المجموعات . وقبل أن أصل إلى التشيلي كانت مجموعات التصوير الثلاث مصرّحاً لها رسمياً وعقودها جاهزة وهي تنتظر هناك التعليمات للبدء بالتصوير حالاً . وكان هذا هو الجزء الأسهل من العمل .

الدراما هي أن تصبح شخصاً آخر

أما الجزء الأكثر صعوبة فقد كان أن أصبح شخصاً آخر . لقد كان أكثر صعوبة مما تصوَّرت . إن تغيير الشخصية هو معركة يومية ، فيها نتمنى أن نستمر أنفسنا فنبقى كما نحن وهكذا نبقى ثائرين ضد تصميمنا نحن على التغيُّر . فلم تكن الصعوبة الرئيسة في عملية التعلّم كما يمكن أن يتوقّع ، وإنما كانت في مقاومتي اللاواعية



للتحوّل في الجسد وفي السلوك على حدّ سواء . كان علي أن أروّض نفسي على التحوّل من ذلك الإنسان الذي كنته أبداً إلى شخص آخر مختلف تماماً عنّي ، يكون فوق شبهات البوليس المتعسف نفسه الذي أرغمني على الخروج من بلدي عنوة . كان علي أن اتّخذ شكلاً لا يمكن حتى لأصدقائي تمييزه . وفي أقلّ من ثلاثة أسابيع استطاع عالما نفس وخبير تزيين سينمائي ، بإشراف متخصص في عمليات التمويه كان قد قدم من التشيلي لهذا الأمر ، أن يحققوا هذه المعجزة مقاومين بقساوة تصميمي الغريزي على البقاء كما أنا .

بدأ العمل باللحية ، ولم يكن مسألة حلاقة بسيطة . فاللحية كانت قد خلقت لي شخصية عليَّ الآن أن أنفصل عنها . وكنت قد أطلقت لحيتي مذ كنت يافعاً وقبل إخراجي لفيلمي الأول . ومع أنني كنت قد حلقتها عدة مرات بعد ذلك ، إلاّ أنني لم أكن يوماً بدونها أثناء التصوير . فاللحية كانت جزءاً لا ينفصل عن هويتي كمخرج . وكان أعمامي ملتحين وهذا ما زاد دون شك في إغراء اللحية بالنسبة إلي . وكنت قد حلقت لحيتي في مكسيكو قبل عدة سنوات ولكنني لم أستطع أن أجعل أصدقائي وعائلتي وخاصة نفسي قادرين على تقبّل وجهي الجديد . كان لدى الجميع انطباع بأنهم مع دجّال . ومع ذلك فقد واصلت بعناد البقاء حليق الذقن لعدة أسابيع ظنّاً مني بأنني أبدو أصغر سناً بهذا الشكل . لكن ابنتي الصغرى كاتيلينا حسمت الموقف بقولها : « صحيح أنك تبدو أصغر سناً دون لحية وإنما تبدو أيضاً أكثر بشاعة » .

وهكذا قام أساتذتي بقصها شيئاً فشيئاً ، ملاحظين تأثير مختلف القصات على مظهري وشخصيتي إلى أن أصبحت حليقاً تماماً .



ولم أجرؤ على النظر في المرآة إلّا بعد عدة أيام .

العمل الآخر كان شعر رأسي . وكان أسود فاحماً ورثته عن أمّ يونانية وأب فلسطيني أورثني أيضاً ميلي إلى الصلع المبكر . إن أول ما قام به خبراء التزيين هو صبغه بلون بني فاهٍ . ثم بعد أن أجروا عليه تسريحات عدة لم ينتهوا بمحاربة الطبيعة . فبدل أن يغطوا صلعتي كما كان مصمّماً في البدء راحوا يوسعون دائرتها ، ليس فقط بتسريح الشعر إلى الوراء بل وبإنهاء ما كانت السنون قد بدأته وذلك بواسطة المقص .

إنه لمن الصعب التصديق كيف أن لمسات ضئيلة يمكنها أن تغير هيئة الوجه . فوجهي دائري كالقمر حتى عندما يكون وزني أقل ممّا كان يومذاك . ولكن بعد أن أزيل الشعر من أطراف حاجبي بدا أكثر طولاً . وهذا التغيير قرّبني أكثر إلى الطابع الشرقي وفي الحقيقة جعلني أقرب إلى ما كان يجب أن أبدو باعتبار أجدادي .

أما الخطوة الأخيرة فكانت النظارات الطبية التي سببت لي وجع رأس شديد في الأيام الأولى القليلة التي وضعتهما فيها . وفي الواقع لم تغير شكل عينيَّ وحسب وإنما غيّرت تعبيرهما أيضاً . وبعد أسابيع من الحماية الشديدة عن الطعام خسرت من وزني عشرين باونداً . وهكذا فقد أصبح التحوّل كاملاً .

إن تحوّل الجسد كان سهلاً ولكنه احتاج إلى قوة تركيز كبيرة فقد كان علي أن أتقبّل انتقالاً من حيث الطبقة الاقتصادية والاجتماعية . وبدل سروالي الجينز المعهود والسترة الجلدية كان علي أن اعتاد على البذلات من القماش الإنكليزي ، والقمصان غير الجاهزة بل التي تصنع خصيصاً عند الخياط ، وأحذية الجلد السويدي المزابر



وربطات العنق الإيطالية المزخرفة . وبدل لهجتي التشيلية الفظة كان علي أن أتصنّع تناغم لهجة الأرغوائي الثري ، وكانت تلك الجنسية أفضل ما يناسب هويتي الجديدة . كان علي أن أضحك بطريقة مختلفة ، وأن أسير بتؤدة وأن أستخدم يداي للتأكيد عندما أتكلم . وباختصار كان علي أن أنفض يداي من كوني مخرجاً سينمائياً فوضوياً منشقاً ، ذلك الشخص الذي كنته دوماً ، وأحوّل نفسي إلى آخر ما يمكن أن أرغب في أن أكونه في العالم : البرجوازي المغرور أو كما ندعوه في التشيلي : المومياء .

إن ضحكت مت

وفي الوقت الذي كنت أتحوّل فيه إلى شخص آخر ، كنت أيضاً أتعلم كيف أعيش مع إيلينا في بيت يعود إلى القرن السادس عشر في أكبر المناطق الارستقراطية في باريس . ولم يكن هذا بيتي ولا يشبه أي مكان عشت فيه . ومع ذلك فقد كان علي أن أخترع ذكريات عنه كي أتجنب الوقوع مستقبلاً في تناقضات ممكنة . وتجربتي كانت من أغرب تجارب حياتي فقد أدركت أنني ، وبالرغم من جاذبية إيلينا وسحرها وأنّها لن تكون أقل من ذلك في الحياة الحميمة ، أدركت أنه لا يمكنني أن أعيش معها تحت سقف واحد . وكانت قد اختيرت من قبل خبراء نظراً لخبرتها المحترفة وإعدادها السياسي ، لتكبح جماحي دون توانٍ حين أطلق العنان لميول الارتجال عندي . وكمخرج سينمائي لم يعجبني ذلك . ولكن بعد أن تمَّ كل شيء بسلام فيما بعد عرفت أنني قد ظلمتها حين حكمت عليها بطريقة لاذعة نظراً لطريقة التخفي التي تبنيناها سوية . والآن وعندما أتذكر



تلك التجربة الغريبة أتساءل إن كانت تجربتنا تلك تصلح لأن تكون مسرحية محاكاة تهكمية عن زواج عصري : كنـا بالكـاد نتحمل أن نكون تحت سقف واحد .

لم يكن لدى إيلينا مشكلة هوية . فهي تشيلية مع أنها لم تعش في التشيلي بانتظام منذ أكثر من خمس عشـرة سنة . وبمـا أنها لم تتعرض للنفي ولا إلى ملاحقة البوليس في أي مكان من العالم فإن صفحتها كانت لا غبار عليها . وكانت قد قامت بمهام سياسية عـدة في بلدان مختلفة ، ولذا فقد أسرت بفكـرة إخراج فيلم سـري في مـوطنها الأصلي . وكـان وضعي أنـا هـو المشكلة . فـادعـاء أنني أرغوائي ، وهي الشخصية التي بـدت لأسباب فنيـة ، أكثر مـلاءمة لي ، أرغمتني على تبني شخصية تختلف جذريـاً عن شخصيتي ، وأن أخترع ماضياً لي في بلد لم أعرفه. وبالرغم من كل ذلك وفي الموعد المحدَّدِ من التدريب تعلمت الاستجابة فوراً لدى سماع من ينـاديني بـاسمي المستعـار وأصبحت قـادراً على الإجـابـة عن أدق المعلومات حول مدينة مونتيفيديو . عرفت أرقام خطوط الباص التي تـوصلني إلى البيت . وأصبحت قادراً على سـرد نوادر قـديمـة عن زملائي الطلاب في المدرسة الثانوية ذات الرقم ١١ والتي تقع على أفينيـدا إطليانـا على بعد مسـافة صفين من المحـلات والبيوت عن صيـدلية مشهـورة ، وصف واحد من سـوبرمـاركت كان قـد افتتـح حديثاً . الشيء الوحيد الذي كان علي أن أتجنبه هو الضحك ، لأن طريقة ضحكي كانت مميزة إلى درجة يمكن معها أن تكشفني رغم تنكري . ولكي يؤثر فيَّ ذلك الرجل المكلَّف بتغيير هويتي حذرني بكل ما استطاع أن يحشد من لهجـة الإنذار قـائلاً : « إن ضحكت غدوت ميتاً » . أما بالنسبة لأحد ملوك الأموال العالميين ذي الـوجه



المتحجر فلم يكن هناك شيء غير عادي .

وأثناء تدربي ظهرت مشكلة لم تكن في الحسبان : لقد أعلن بينوتشه حالة جديدة من الحصار . فتجارب الاقتصاد الحرّ من قبل مدرسة شيكاغو المدعومة من قبل الحكومة كانت تغييراً استعراضياً مفاجئاً في السياسة التشيلية . والصعوبات الاقتصادية التي تلت ذلك وحّدت الفئات المعارضة المتعددة الاتجاهات في جبهة واحدة متراصة للمرة الأولى . وحتى قطاعات البرجوازية الأكثر تقدمية التحقت بالقوات المعارضة ، الشرعية منها وغير الشرعية ، في إضراب شامل ليوم واحد عن العمل . وكان ذلك عرضاً للقوة والتصميم مما أثار سخط بينوتشه ففرض حالة الحصار . « إذا استمرّ هذا ، فسيكون لنا يوم أحد عشر من أيلول آخر » قال بينوتشه مهدداً ، في إشارة هازئة إلى ذلك اليوم من سنة ١٩٧٣ حين أطاح بحكومة سلفادور الليندي وسط الفوضى الاقتصادية .

إن حالة الحصار هذه بدت مثالية لإنتاج فيلم كفيلمنا الذي سيحاول عرض أوجه الحياة الأقل وضوحاً داخل التشيلي . ولكن المراقبة ستكون أشدّ والقمع أكثر دموية ، وساعات العمل ستقصر نظراً لنظام حظر التجول . ودرست المقاومة الداخلية كل العوامل وقررت بعد ذلك أن تسير قدماً . وهكذا شرعنا بالعمل في اليوم المحدّد .

ذنب حمار طويل لبينوتشه

الاختبار الأول لي بدأ يوم الرحلة من مطار مدريد . ولم أكن قد شاهدت إيلي والأولاد ، بوتشي ، ميغواليتو وكاتالينا خلال الأسابيع العدة التي كنت أتحول فيها إلى شخص آخر . واتخذ قرار رحيلي



دون إعلام عائلتي لتجنب ألم الوداع . وظننا في البدء أنه من الأفضل عدم إطلاع عائلتي على المشروع . ولكن سريعاً ما تحقق لنا أن هذا لن يتم إذ ليس أفضل من إيلي في العون كعامل مساعد في المؤخرة ، فهي الشخص المثالي للسفر بين مدريد وباريس ، باريس وروما وحتى بيونس أيرس لاستلام الفيلم وتظهيره عندما أرسله تباعاً من التشيلي . وهي تستطيع أيضاً أن توفر لنا المال الإضافي اللازم إذا احتجنا إليه .

عندما عدت إلى مدريد لأقوم بآخر التحضيرات قبل الرحيل ، بدأ أولادي يلاحظون التغييرات . فقد وجدت كاتالينا في غرفة نومي الثياب الجديدة التي تختلف تماماً عن نمط الثياب التي أرتديها . فكان قلقها وحشريتها كبيرين إلى درجة أنني لم أجد بدّاً من جمع الأولاد وإطلاعهم على القصة كاملة . استمعوا إلي بغبطة وبشعور الاشتراك في الجرم وكأنهم أصبحوا فجأة جزءاً من أحد الأفلام التي كنا مراراً ما نخترعها لتسليتنا الخاصة . ولكنهم عندما رأوني في المطار ، متحولاً إلى أرغوائي ذي مظهر اكليركي أدركوا ، كما أدركت أنا ، أن هذا الفيلم سيكون دراما واقعية وأنه بقدر ما هو مهم فهو خطر. ولكنهم أيّدوه بالإجماع فألفوا منه لعبة حين قالوا : «المهم أن تعلق لبينوتشه ذيل حمار طويلاً» مشيرين إلى لعبة يقوم فيها الأطفال وهم معصبو العينين بتعليق ذيل على حمار مصنوع من الورق . فأجبتهم : « هذا وعد » . ومقدِّراً لطول الفيلم الذي أنوي تصويره قلت : «وسيكون طوله ٢٠,٠٠٠ قدم » . بعد ذلك بأسبوع هبطت أنا وإيلينا في سانتياغو . كانت الرحلة تطوافاً غير منتظم بين سبع مدن أوروبية كي اعتاد على ممارسة شخصيتي الجديدة . جواز سفري حمل اسم رجل ارغوائي حقيقي وكل المعلومات



المتعلقة به . وقد منحه صاحبه لنا كتبرع سياسي ، وهو يدرك تماماً بأنه سيستخدم للدخول إلى التشيلي . وكل ما قمنا به هو استبدال صورته الشمسية بصورة حديثة لي أخذت بعد التحويل . وأصبحت قمصاني ، حقيبة يدي ، بطاقات الزيارة ، أقلامي ودفاتري كلها تحمل اسم أو الحروف الأولى من اسم صاحب الجواز الفعلي . وبعد ساعات من التدرب تعلمت تقليد إمضائه دون تردد . ولكننا ، لضيق الوقت ، قصَّرنا في مسألة سندات الاعتماد وهو تقصير خطير إذ ليس مقنعاً إطلاقاً أن يقوم رجل كالذي أقوم بدوره ، بدفع ثمن تذاكر السفر نقداً .

وبالرغم من التناقضات الجمّة بيني وبين إيلينا ، هذه التناقضات التي لو وجدت فعلاً بين زوجين حقيقيين لأدت فوراً إلى الطلاق ، فقد تعلمنا كيف نمثّل دور الزوجين القادرين على تلطيف أكثر الأزمات العائلية عصفاً . واختلقنا ماضياً مشتركاً لأنفسنا ونوادر وعادات وأذواقاً ثم رحنا نحفظها غيباً . وأجدنا في حفظها إلى درجة أننا أصبحنا قادرين على الصمود أمام أي استنطاق مهما كان صارماً . والحكاية التي اخترعناها لتغطيتنا كانت مضمونة : إننا نشرف على مكتب إعلاني في باريس، وقد أتينا إلى تشيلي لتصوير فيلم إعلاني لتشجيع نوع من العطور الجديدة سيطرح للبيع في الأسواق الأوروبية في الخريف المقبل . وقد وقع اختيارنا على التشيلي للتصوير باعتبارها واحدة من البلدان القلائل التي يمكن للمرء أن يعثر فيها على الفصول الأربعة على مدار العام بدءاً من المسابح الحارة ، وانتهاءً بالثلوج الأبدية . وكانت إيلينا وهي تختال بثقة بثيابها الأوروبية الثمينة لا تشبه أبداً تلك الفتاة التي قابلتها في باريس بشعرها المسبل وتنورتها الاسكوتلاندية وحذاء التدريب .



وبدوري لم أشعر بالغربة في قوقعة رجل الأعمال ، وتبيَّنت إلى أية درجة قد أصبحت شخصاً آخر . وفكـرت : « وفي تلك اللحظة لم يكن ثمة ما يربطني بشخصيتي السابقة سوى تلك النسخة البالية من « الخطوات الضائعة » القصة الرائعة لأليجو كاربنتر الأخيرة لتخفف عني خوفي من ركوب الطائرة . وفوق ذلك كله كـان عليّ أن أشقّ طريقي أمام نوافذ مكاتب الهجرة والجوازات في مطارات متعددة من العـالم لأتمكن من التغلب على حـالتي العصبيـة بسبب الجـواز المزّور .

كانت تجربتي الأولى في جنيف . وسار كلّ شيء على ما يرام لكنني لن أنسى ذلـك المـوقف الحـرج حين راح مـوظف الهجـرة يتفحص بإمعان الجواز، صفحة صفحة تقريباً، ثم نظر إلى وجهي ليقارنه بالصورة التي في الجواز فأحسست بتوتر شديد إلى درجة أنني حبست نفسي وأنا أنظر إليه مع أن الصورة كانت الرابط الشرعي الوحيد بيني وبين الجواز . ولم تعاودني تجربة ذلك الغثيان وذلك القلق الخافق للقلب إلى أن فتحت أبواب الطائرة في مطار سانتياغو . ولأول مرَّة منذ اثنتي عشرة سنة أشعر بهواء الآند الجليدي . وعلى واجهة مبنى المطار طالعتنـا العبارة التـالية : تشيلي تسيـر قدمـاً في ظل النـظام والسلام » . ألقيت نظرة على ساعة يدي : لم يبق على موعد حظر التجول سوى أقل من ساعة .




مكتبة
الفكر الجديد

التحرر الأول من الوهم : أبهة المدينة



عندما فتح موظف الهجرة جواز سفري شعرت بأنه لو رفع رأسه ونظر بعمق في عيني لاكتشف خداعي . كانت هناك ثلاثة أنضدة لفحص الجوازات وراءها رجال بلباسهم الرسمي . فقررت أن أختار أفتاهم إذ بدا لي أنه أسرعهم . ووقفت إيلينا في طابور آخر وتظاهرنا بأننا غرباء عن بعضنا حتى إذا وقع أحدنا في مشكلة ما استطاع الآخر أن يبلغ الأمر لمن يلزم . ولكن ذلك لم يكن ضرورياً لأن رغبة موظفي الهجرة في اجتناب حظر التجول كانت كرغبة المسافرين في ذلك ؛ فلم ينظروا في الوثائق إلاّ لماماً . أما ذلك الذي وقع اختياري عليه فلم يكلف نفسه حتى عناء النظر إلى التأشيرة إذ يسمح للارغوائيين الدخول بدونها لأنهم جيران . واكتفى بوضع خاتم الدخول على أول صفحة نظيفة صادفها . ولكنه عندما أعاد الجواز لي نظر إلى عيني نظرة حادة جمّدت الدم في عروقي للحظة . وقلت بصوت ثابت : « شكراً » فأجاب وعلى فمه بريق ابتسامة عريضة : « أهلاً بك في تشيلي » .

ووصلت حقائب السفر بسرعة فائقة لا تحدث حتى في أحدث مطارات العالم . تناولت حقيبتي ثم حقيبة إيلينا ، وكنّا قد اتفقنا على أن أخرج أنا أولاً بالحقيبتين بهدف كسب الوقت . ثم حملتهما إلى منصة التفتيش الجمركي ، وكان الموظف قلقاً كالآخرين بسبب حظر التجوّل ، فكان بدل أن يفتش الحقائب يستعجل المسافرين للخروج . وما كدت أضع حقيبتي على المنضدة حتى بادرني بالسؤال قائلاً : « أمسافرٌ وحدك ؟ » . قلت هو كذلك . فألقى على الحقيبتين نظرة خاطفة ثم قال : « حسناً ! يمكنك الخروج » . ولكنّ صرخة تعالت من ورائي : « فتش هذه الحقيبة » . كان صوت المراقبة ولم ألاحظ وجودها حتى تلك اللحظة . وهي نموذج



تقليدي قاس . شقراء ذات طابع مذكّر ، في زي ذي نطاقين متصالبين . ولم يخطر ببالي قط قبل هذه اللحظة أنني لا أستطيع تفسير وجود حقيبة لديَّ ملأى بثياب النساء إذا ما سئلت عن ذلك .
ولم أصدق أيضاً أن المراقبة قد انتقتني من بين كل هؤلاء المسافرين لمجرد حقيبتي . وبينما كان الرجل ينقّب في ثيابي سألتني هي عن جوازي وراحت تتفحصه بدقة ولعلمي بأن الأسئلة ستبدأ الآن دسست قطعة سكر في فمي إذ لم أكن واثقاً من مقدرتي على إخفاء هويتي التشيلية وراء لهجتي الارغوائية الزائفة .

وجاء السؤال الأول من قبل الرجل : « كم ستطول مدة إقامتك في التشيلي يا سيدي ؟ » فتمتمت : « مدة كافية » .

وبما أن قطعة السكر كانت في فمي فلم استطع أنا نفسي أن أفهم ماذا أقول . ولكن الرجل بدا غير مهتمّ وسألني أن أفتح الحقيبة الأخرى . وكانت مقفلة والمفتاح مع إيلينا . فما العمل ؟ ورحت أجول بناظري بحثاً عن إيلينا فوجدتها ما زالت في طابور الهجرة ، تقف هناك ببرودة فائقة غير شاعرة بالمأساة التي تدور قريباً جداً منها. وكنت على وشك الإعلان بأنها صاحبة الحقيبة غير آبه بنتائج قراري المذعور هذا عندما أعادت المراقبة جوازي وانتقلت إلى حقيبة شخص آخر . التفت لأنظر إلى إيلينا ثانية ولكنني لم أجدها . وعندها أدركت كم أنا بحاجة إليها ليس في هذه اللحظة الخاصة وحسب وإنما في مغامرتنا كلها .

كانت ظاهرة غريبة لم نستطع تفسيرها : اختفت إيلينا . وأخبرتني ، فيما بعد ، بأنها عندما كانت تقف في الطابور رأتني وأنا أتناول حقيبتها فشعرت بأن ذلك مخاطرة ولكنها هدأت عندما رأتني أخرج من الجمارك .



اجتزت قاعة الانتظار شبه الخاوية أتبع حمالاً وضع حقيبتي على عربته . وطالعتني أولى مفاجآت عودتي : لم أشاهد أي مظهر عسكري كما كنت أتوقع ولا أية علامة من علامات الفقر . صحيح أنه لم يكن مطار لوس سريللوس الواسع المتجهم الذي انطلقت منه يوم نفيت في إحدى ليالي تشرين الماطرة منذ اثنتي عشرة سنة ، ويومها كان شعوري أن العالم يتفسّخ من حولي ، ولكنه مطار بوداهيول الحديث الذي رأيته مرة واحدة قبل الانقلاب العسكري . ومع ذلك فلم يكن انطباعي ذاتياً فلا وجود مسلح في أي مكان كما يتوقع المرء خاصة في حالة الحصار المفروض . بل كان المطار نظيفاً تسطع فيه الأنوار المشعّة . وأنّى نظرت رأيت الإعلانات المتلألئة بألوانها المتعددة ، والحوانيت الكبيرة تمتلىء بالسلع المستوردة ، ولم يكن هناك حتى الحراسة العادية التي تقوم بمهام إرشاد المسافرين الضالين طريقهم . أما سيارات الأجرة التي تقف إلى جانب الرصيف في الخارج فلم تكن بقايا سيارات مهترئة كما كانت من قبل بل كانت سيارات يابانية حديثة جدّاً وهي تصطف بأناقة في خطٍّ مستقيم .

ولكن الوقت ليس وقت قفزٍ للاستنتاجات؛ فالحقائب قد سُتفت في سيارة الأجرة وساعة حظر التجول تقترب بسرعة وإيلينا لم تظهر بعد . وهذه مشكلة جديدة . وكنا قد اتفقنا على أنه في حال تأخر أحدنا يقوم الآخر بمتابعة الطريق ثم يبلّغ عن ذلك بالهاتف على الأرقام التي زوَّدنا بها للحالات الطارئة . ولكنني لم أشأ الذهاب وحدي سيما وأننا لم نكن قد قررنا مسبقاً في أي فندق سننزل . وكنت قد دوَّنت اسم الـ « كونكيستادور » على قسيمة الدخول كعنوان لنا إذ أنه فندق ينزل فيه عادة رجال الأعمال . أضف إلى هذا



أنني كنت أعرف أن مجموعة تصويرنا الإيطالية تنزل فيه . ولكنني لم أكن متأكداً أن إيلينا تعرف ذلك .

كنت قد بدأت استسلم وأنا ارتجف من البرد والقلق حين رأيت إيلينا تهرع نحوي يلحق بها رجل في ثياب مدنيَّة وعلى يده معطف أسود . وقفت هناك متسمراً في مكاني ، منتظراً الأسوأ . وعندما أدركها الرجل ناولها المعطف الذي كانت قد نسته في الجمارك . لقد اضطرت للتأخر هناك بسبب المراقبة نفسها التي تورَّطت أنا معها ، إذ لاحظت أن إيلينا تسافر دون حقائب فقامت بإجراء تفتيش دقيق على محتويات حقيبة يدها ابتداء بأوراقها الثبوتية وانتهاء بأدوات الزينة . وفاتها طبعاً أن المذياع الياباني الصغير في حقيبة إيلينا كان نوعاً من السلاح إذ كان وسيلتنا الوحيدة للاتصال بالمقاومة الداخلية . وكنت أكثر اضطراباً من إيلينا لأنني اعتقدت بأنني أضعتها زهاء نصف ساعة ولكنها أثبتت لي بأن ذلك لم يكن إلَّا ست دقائق . وأخيراً شعرنا بالراحة حين أخبرنا سائق التاكسي أن الوقت المتبقي على حظر التجول ليس عشرين دقيقة ، كما كنا نعتقد ، بل ساعة وعشرون دقيقة . فقد كانت ساعتي ما زالت بتوقيت ريو دي جانيرو . وكانت الساعة بتوقيت سانتياغو العاشرة وأربعين دقيقة وكان الليل بارداً جدّاً .

أهذا ما جئت من أجله ؟

كلما اقتربنا من المدينة كان سروري بالعودة ينحسر بالتدريج ليحلّ محله شعور الريبة والشك . كانت الطريق إلى مطار لوس سيلايللّوس القديم تمر على مصانع متوقفة عن العمل ، وعبر أحياء



فقيرة عانت قمعاً وحشياً زمن الانقلاب . أمّا مطار بوداهويل الجديد فهو يقع على طريق عام عليه إشارة ضوئية حديثة . وكان هذا بداية سيئة لشخص مثلي ، مقتنع بشر الحكم الديكتاتوري ، جاء يبحث جاهداً في الشوارع . والحياة العامة وفي تصرفات الناس عن شواهد دامغة لفشل هذا الحكم ليصورها في فيلم يعرض على الملأ . وانقلب الآن قلقي إلى خيبة أمل صريحة . ولقد اعترفت لي إيلينا لاحقاً أنها بالرغم من عودتها إلى التشيلي عدة مرات في السنوات القليلة الماضية فقد شعرت هي أيضاً مثلي بالانزعاج .

ولم يكن بالإمكان إغفال ذلك . فقد كانت سانتياغو ـ عكس ما سمعنا عنها في المنفى ـ مدينة مشعّة ، تماثيلها المبجّلة مضاءة بعظمة ، وشوارعها جدّ نظيفة ومنسّقة . وإن وجدت الشرطة المسلحة فإنها كانت أكثر ظهوراً منها في شوارع باريس ونيويورك منها ههنا . وابتداءً من محطتها المركزية التاريخية التي صمّمها غوستاف إيفيل نفسه ، باني البرج في باريس ، فقد كان بولفار برناردو أوهيجنز اللامتناهي يتدفق أمام أعيننا كنهر من الضوء . وحتى المومسات الشاحبات اللون ظهرن أقل عوزاً وحزناً عمّا كنّ عليه سابقاً . وفجأة لاح لي قصر « لامونيدا » عبر نافذة التاكسي وكأنه رؤيا غير مستحبة . وكان آخر عهدي به قوقعة محترقة مغطاة بالرّماد إثر الانقلاب . أمّا الآن وقد رمّم وأعيد استخدامه فقد بدا كقصر في حلم عند قدم حديقة فرنسية .

ورحنا نستعرض رموز المدينة الكبرى : نادي الاتحاد ، مكان لقاء مومياءات البلد البارزين حيث يجتمعون لحوك خيوط السياسة التقليدية ؛ الجامعة بنوافذها القاتمة اللون ؛ قصر المكتبة الوطنية المهيب ؛ مخزن فرع باريس للألبسة . وإلى جانبي جلست إيلينا



محاولة إقناع السائق بإيصالنا إلى فندق الكونكيستادور ؛ ولكنه كان مصمّماً على أخذنا إلى فندق آخر ربما كان يدفع له عمولة . استعملت معه اللباقة وحرصت على عدم إثارة غضبه أو شكه لعلمها بأن كثيرين من سائقي التاكسي في سانتياغو هم مخبرو شرطة . أما أنا فقد كنت عاجزاً عن مساعدتها في إقناعه لأصابتي بدوار شديد .

وكلما ازداد اقترابنا من قلب المدينة توقفت عن العجب بالعظمة المادية التي التمستها الديكتاتوريّة لتغطية دم عشرات الآلاف من الذين قتلوا أو فقدوا ، وعشرة أضعاف هذا العدد من الذين سيقوا إلى المنفى . وبدأ اهتمامي ينصب على الناس الذين يسيرون بسرعة فائقة ربما لاقتراب موعد حظر التجول . وإنَّ أحداً منهم لم يتكلم ولا نظر في اتجاهي . ولم يومىء أيّ منهم أو يضحك ، ولم يقم أحدهم بأية إشارة تدل على حالته النفسية . فلكأن كل واحد منهم ، وهو يتلفّع بمعطفه الداكن ، إنسان وحيد في مدينة غريبة . كانت الوجوه جوفاء خالية لا تعبر عن أي شيء حتى عن الخوف . وبدأ مزاجي يتغير فلم استطع مقاومة رغبتي في الخروج والذوبان بين الجمهور . وحاولت إيلينا ثنيي فلم تستطع مجادلتي بشدة خوفاً من استراق السائق السمع . واستحوذت العاطفة الجامحة على نفسي فأوقفت السائق وقفزت من التاكسي صافقاً الباب ورائي .

وقطعت كال استادو غير آبه بحظر التجول القريب الحلول ، ثم كال هرفاتوس ومررت خلال منطقة جديدة مخصصة للمشاة وهي مقفلة بوجه السير تشبه كال فلوريدا في بيونس أيرس وفياكوندوتي في روما ، وقصر بوبورغ في باريس ، ورونا روزا في مدينة المكسيك . وهذا الممر هو وسيلة أخرى من وسائل المتعة التي اصطنعتها الديكتاتورية . ولكن بالرغم من المقاعد الخشبية التي تغري بالراحة



والحديث ، ومن بهجة الأضواء ، والزهور المنسّقة في أحواض جميلة ، فإن حقيقة قاتمة برزت بشكل واضح ، ففي زوايا الشوارع وحسب راح الناس يتحدثون بأصوات خافتة لا يقوى على سماعها مسترقو السمع التابعون للدكتاتورية . وكان هناك باعة متجولون وعدد كبير من الأطفال يستعطون . وأكثر ما استرعى انتباهي المبشّرون الإنجيليون الذين راحوا يبيعون وصفات الوصول إلى السعادة الأبدية . وفجأة وبينما أنا أدخل إلى كال هورفانوس لمحت أول رجل شرطة . كان كارابينيرو يسير بخطى موزونة على الممر وعدة آخرون في كشك حراسة بالجوار . وشعرت ببرودة كالثلج في تجويف معدتي وبدأت ركبتاي ترتجفان . ولقد أغاظني التفكير بأن مجرّد رؤية كارابينيرو قد أفزعني إلى هذا الحدّ . ومع ذلك فقد تبيّنت بسرعة ، من خلال تعابير وجوههم القلقة وهم يراقبون المارة ، بأن الشرطة أيضاً كانوا عصبيي المزاج . وهذا ما وهبني بعض العزاء . وقلقهم هذا كان في محله إذ أن المقاومة السرية قد فجّرت منذ عدة أيام كشك حراسة في نفس النقطة .

في صميم الحنين إلى الوطن

ههنا مفتاح رموز ماضيَّ . ففي الجوار كانت محطة البث التلفزيوني القديمة ، وكذلك الفرع السمعي البصري حيث بدأت حياتي المهنية السينمائية . وهنا مدرسة التمثيل المسرحي التي جئت إليها من مسقط رأسي في السابعة عشرة من عمري لأتقدم إلى امتحان الدخول الذي حدّد سيرتي المهنية . وهنا أيضا المكان الذي قامت فيه مظاهرات الاتحاد الشعبي لمؤازرة سلفادو الييندي سنة ١٩٧٠ وحيث عشت أصعب سنوات عمري الحاسمة . ومررت



بالمسرح السينمائي حيث شاهدت ، للمرة الأولى في حياتي ، روائع المسرحيات وأبقاها في ذهني : « هيروشيما » و« حبّي » مون آمور (Mon Amour) . وفي تلك اللحظة بالذات مرّ أحدهم وهو يغني أغنية بابلو ميلانيز : « سأعود للسير على الشوارع التي كانت يوماً سانتياغو الدامية » . عندها نسيت حالة التمويه التي جئت متلفعاً بها وللحظة عدت نفسي . كان لدي دافع غير متعقل لأعرّف عن نفسي ، لأجهر باسمي عالياً ولأخبر العالم أجمع أنه يحق لي العودة إلى وطني .

كنت أذرف الدمع حين وصلت إلى الفندق قبل بدء حظر التجوّل بقليل ، وجدت الباب موصداً ففتحه لي البواب . أمّا إيلينا التي كانت قد حجزت لكلينا في الفندق ، فكانت في الغرفة تعلّق هوائي المذياع الصغير . بدت هادئة ولكنها عندما رأت أنني قد أصبحت داخل الغرفة انفجرت في وجهي صارخة وكأنها زوجة حقيقية . لم تستطع أن تتخيل كيف أنني أخاطر بالسير في الشوارع وحيداً إلى حين حلول منع التجول . ولم أكن في حالة تسمح لي بسماع المحاضرات وكنموذج للزوج الحقيقي خرجت صافقاً الباب ورائي . ورحت أبحث عن المجموعة الإيطالية التي كانت تنزل في الفندق نفسه .

قرعت باب الغرفة التي تقع أسفل غرفتنا بطابقين مكرِّراً لنفسي نص كلمة السر الطويل الذي كنّا قد اتفقنا عليه منذ شهرين في روما مع رئيسة المجموعة . وجاءني صوت ناعس قائلاً :

ـ « من الطارق ؟ » .

ـ « جبرائيل » أجبت .

ـ « ومن أيضاً ؟ » .

ـ « كبار الملائكة » .



ـ أهما القديسان جرجس وميخائيل ؟

وبدل أن يوحي صوتها بالتأكّد والثقة راح يزداد ارتعاشاً لدى كل جواب . وبدا ذلك غريباً إذ عليها أن تكون قادرة على التعرف على صوتي بعد كل تلك الأحاديث المطوّلة بيننا في إيطاليا . وأصرّت على تلاوة نص كلمة السر كاملاً حتى بعد أن ذكرت لها أسماء كبار الملائكة فقالت :

ـ « ساركو » ، وكان هذا اسم عائلة الشخصية الرئيسة في الفيلم الذي لم يتح لي تصويره في سان سبستيان وهو « مسافر الفصول الأربعة » ، وتلوت أنا اسمه الأول فقلت « نيقولاس » .

ولم تكتف غراتسيا بذلك، وهي صحافية اضطلعت بمهام صعبة متعددة . وأدركت أنها عازمة على السير بكلمة السر إلى نهايتها المرّة وجزعت أن تصل لعبة الكلمات المريبة هذه إلى الغرف المجاورة .

وسألت : « كم إنشاً طول الشريط ؟ » .

فدمدمت متذمراً : « كفاك مداورة ، ودعيني أدخل . فاصرت على اتمام نص كلمة السرّ إلى نهايته قبل أن تفتح الباب . « اللعنة » تمتمت لنفسي وأنا أفكر بإيلينا وبإيلي أيضاً . « كلهن سواء » . واستمررت في الإجابة على الاستجواب بطريقة أكرهها جدّاً وهي طريقة الزوج المهيض . وبعد الردّ الأخير فتح الباب وهناك وقفت غراتسيا الشابة الساحرة التي عرفتها في إيطاليا محملقة بي وكأنها ترى شبحاً ثم عادت فأقفلت الباب في وجهي . وشرحت لي لاحقاً سبب ذلك فقالت : لقد بدوت كامرىء رأيته سابقاً وإنما لم أستطع أن أتذكره » . وفهمت قولها إذ أن ميغيل ليتين الذي عرفته غراتسيا شخص غير تقليدي يرتدي بطريقة فوضوية وهو ذو لحية ودون



نظارات . أما الرجل الواقف أمامها فهو أصلع ، قصير النظر ، حليق الذقن في ثياب مدير بنك .

قلت لها : « خفّفي من روعك ودعيني أدخل . أنا ميغيل » .

وبعد أن تفحصّتني بدقة سمحت لي بالدخول لكنها ظلت ترقبني بريبة . ثم أدارت المذياع إلى أعلى صوته كي تخفي حوارنا في حالة وجود مسترق سمع أو مكبرات صوت مخبأة . كانت هادئة تماماً . وقد وصلت قبل أسبوع مع مجموعتها المؤلفة من ثلاثة أعضاء ، وبفضل تعاون سفارتها معها استطاعت الحصول على أذونات الدخول ورخص التصوير . وكانوا قد بدأوا العمل فعلاً بالتقاط صور كبار الموظفين أثناء حضورهم حفل افتتاح مسرحية « السيدة الفراشة » برعاية السفارة الايطالية ، وكان الجنرال بينوتشه نفسه مدعوّاً إلّا أنه اعتذر في اللحظة الأخيرة . وكان ظهور المجموعة الإيطالية هناك وفي مناسبة مهمة كهذه عاملاً هاماً في إضفاء صفة الإجازة الرسمية على وجودها في سانتياغو . ومنذ تلك اللحظة استطاعوا العمل بحرية في الشوارع دون إثارة الريبة والشكوك . وكذلك أخبرتني غراتسيا أنها عملت على نيل السماح لمجموعتها بالتصوير داخل قصر لامونيدا وقد وعدت خيراً . وقد أثارتني هذه الأخبار إلى درجة أنني أردت البدء بالتصوير حالاً . ولولا حظر التجوّل لسألت غراتسيا إيقاظ المجموعة لتصوير ليلة وصولي . ثم وضعنا الخطط للبدء بالتصوير في صبيحة اليوم التالي . وقررنا عدم اطلاع أعضاء المجموعة على البرامج مسبقاً وجعلهم يعتقدون أنها هي التي تدير العمل لا أنا . وكانت غراتسيا أيضاً لا تعلم بوجود المجموعتين الأخريين لتصوير الفيلم نفسه .



وجلسنا نراقب البزاقات التي كانت غراتسيا تحملها دوماً معها وفجأة رنَّ جرس الهاتف فقفز كلانا . وتناولت غراتسيا السماعة بسرعة مصغية قليلاً ثم وضعتها في مكانها . كان موظف الاستقبال يطلب إليها إخفاض صوت المذياع بسبب تلقيه شكاوى بهذا الخصوص .

خوف هائل لا يمكن نسيانه

كان يوماً مليئاً بالإثارة . وعندما عدت إلى الغرفة وجدت إيلينا نائمة والنور فوق المنضدة قرب سريري مضاء . خلعت ثيابي دون إحداث أية ضجة ثم استلقيت على السرير . كنت قد تمددت وأغلقت عينيّ عندما تنبَّهت إلى سكون حظر التجول المخيف . سكون هائل شمل المدينة المطفأة الأنوار . حتى ولا صوت ماء يجري في الأنابيب ولا صوت تنفّس إيلينا ولا صوت داخل جسدي أنا .

شعرت بقلق وتوتر عصبي ، فنهضت ووقفت في النافذة ، أنظر إلى المدينة المهجورة ، محاولاً استنشاق هواء الشارع الطلق . لم أرَ سانتياغو قبل اليوم بهذه الوحدة وهذه الكآبة . كانت غرفتنا في الطابق الخامس مقابلة لممر ذي جدران عالية مغطّاة بالشحار الأسود ولم يظهر من السماء سوى قسم صغير خلال الضباب المغبَّر . ولم أشعر أنني في بلدي وإنما شعرت بنفسي كحيوان حُشر في زاوية أحد أفلام مارسيل كارنييه الشتوية العتيقة .

منذ حوالي اثنتي عشرة سنة وفي الساعة السابعة ذات صباح أطلق رقيب في الجيش الرّصاص فوق رأسي وأمرني برفع يديّ عالياً أنا وجماعة من المساجين كان يقودهم نحو بناء الأفلام التشيلية حيث



كنت أعمل . كانت المدينة كلها ترتجف تحت وطـأة دويّ القنابـل والرَّصاص والطائرات المغيرة . وكان الرقيب شديد الاضطراب إلى درجة أنّه سـألني ماذا يحـدث . وقال : « نحن حيـاديون » وعنـدما أصبحت أنـا وإيـاه وحـدنـا سـألني : « ألست أنت مخـرج فيلم الشاكال دي نـاهو التـورو . El Chacal de Nahualtoro . فأومـأت بـالإيجاب . وعنـدها نسي كـل شيء . نسي القصف والـرّصـاص والقنابل الحارقة التي كانت تسقط على قصر لامونيدا . وسألني أن أشرح له كيفية إظهار الدم يتدفق من أجسـاد الموتى في الأفـلام . وكان مأخوذاً بشرحي ثم عاد إلى نفسه وصرخ فينا قائلاً : « لا تنظروا إلى الوراء وإلاّ أطحت برؤوسكم » .

ولولا الجثث الّتي رأينا في الشارع منذ دقائق معدودة لـظننا أن كل هذا تمثيل . كان هناك رجل ينزف بغزارة على الممر ولا أمل له بمساعدة طبية . زمر من الرجال في ثياب مدنية كانوا يجرّون مؤيدي الرئيس الييندي إلى الموت . ورأينا صفـاً من المساجين ظهـورهم إلى الحائط وشرذمة من الجنود يتظاهرون بأنهم ينفذون فيهم حكم الأعدام . ولكنَّ الجنود الذين كانـوا يحرسـوننا ظلّوا يسـألوننـا عمّا يحدث ويعيدون القول بأنهم حياديون .

كـان مبنى الأفلام التشيليـة محاطـاً بجنـد يحملون رشـاشـات مصوبة إلى مدخله . وعندما رآنا البـواب ، وهو يعتمـر قبعة عليهـا شعار الحزب الاشتراكي ، خرج لملاقاتنا . وصاح قـائلاً : « هـوذا السيد ليتين وهو المسؤول عن كل ما يدور هنا » . لكن الرقيب دفعه دفعة أوقعته أرضاً وصرخ في وجهه : « قصر الله عمرك ! يا قطعةً من القذارة » .



وسألني الرقيب أن اتصل تلفونياً لأعرف ماذا يحدث . وحاولت الاتصال إلاّ أنني لم أستطع الوصول إلى أحد . وظلَّ ضباط الجيش يدخلون ويخرجون ويصدرون أوامر متناقضة. يعطي أحدهم أمراً ثم يأتي آخر فيصدر أمراً مناقضاً : نستطيع التدخين ، لا نستطيع التدخين . نستطيع الجلوس ، لا نستطيع الجلوس بل يجب أن نبقى واقفين . وبعد مضي حوالي ساعة ظهر جندي شاب وصوب بندقيته نحوي مخاطباً زميله : « سارج ! أن في الخارج سيدة تسأل عن هذا السيد » . لا بدّ أنها إيلي . وخرج الرقيب ليتحدث إليها . وكانت إيلي قد حضرت لأخذ جثتي . ففي حالة الفوضى هذه أخبرها صديق بأنني قد أعدمت أمام مبنى الأفلام التشيلية . في هذه الأثناء أخبرنا الجنود بأنهم أوقظوا مع بزوغ الفجر ، وأنهم لم يتناولوا الفطور ، وأنهم قد أمروا بألاّ يقبلوا شيئاً من أحد ، وبأنهم يشعرون بالبرد والجوع . فما استطعنا أن نفعل شيئاً تجاههم سوى أن نعطيهم سجائرنا .

ثم عاد الرقيب يرافقه نقيب أول وبدأ يتعرّف إلى من سيأخذ من المساجين إلى القاعة. وعندما وصل إليَّ قاطعه الرقيب قبل أن أتمكن أنا من الإجابة قائلًا : « كلا يا سيدي ! هذا الرجل غير مشبوه . ولقد جاء ليشكو جيرانه الذين حطموا له سيارته » . فنظر النقيب إلي باشمئزاز قائلاً : « كيف يستطيع امرؤ أن يكون بهذه السخافة في وقت كهذا ؟ قل له أن يخرج من هنا بحق جهنم ! » .

وأطلقت لساقي العنان وأنا مقتنع بأنهم سيطلقون عليَّ الرصاص في الظهر كعادتهم بحجة أنني أحاول الفرار . لكنهم لم يفعلوا . ورأيت الأعلام مرفوعة على أبنية متعددة في حيّنا لإظهار تعاطفهم مع الجند . ولقد وشت بنا أنا وإيلي امرأة في الحيّ تعرف



علاقتنا بالحكومة السابقة ونشاطاتي الحزبية في حملة اليندي الرئاسية وأنَّ اجتماعات كانت تعقد في بيتي قبل الانقلاب بفترة وجيزة . لهذا لم نعد إلى البيت . وبقينا شهراً نتنقّل نحن والأولاد من بيت إلى آخر حاملين معنا أيسر حاجاتنا الضرورية ، نركض والموت في أثرنا ، إلى أن كان المخرج الوحيد من هذه الورطة هو نفق المنفى .





مكتبة
الفكر الجديد

من بيتي ، كان منفياً أيضاً



في تمام الثامنة من صباح اليوم التالي طلبت إلى إيلينا أن تجري اتصالاً هاتفياً على رقم لا يعرفه أحد سواي ، وتطلب شخصاً سأدعوه فرانكي . وعندما اتصلت به أخبرته بأنها من قبل غبرييل الذي يريده أن يحضر إلى الغرفة رقم ٥٠١ في الكونكوستادور . وبقينا أنا وإيلينا في السرير . وعندما سمعت طرقاً على الباب بعد نصف ساعة خبأت رأسي تحت ملاءة السرير . ولم يكن لدى فرانكي أية فكرة عمّن سيقابل ، إذ كان الاتفاق بيني وبينه أن أي شخص يتصل به من قبل غبرييل يكون مرسلاً من قبلي . وفي الأسبوع الماضي دعاه ثلاثة باسم غبرييل وهم يديرون مجموعات سينمائية بمن فيهم غراتسيا نفسها . كذلك لم يكن لديه سبب ليشك بأنّ الداعي الآن هو أنا .

وكنت أنا وفرانكي صديقين قبل أيام الجامعة الشعبية بمدة طويلة . وقد عمل معي منذ باكورة أعمالي الفنية . وقد ذهبنا معاً منذ مدة وجيزة إلى مهرجانات سينمائية مختلفة . والتقينا مؤخراً السنة قبل الماضية في المكسيك . ومع ذلك وعندما كشفت عن رأسي لم يستطع التعرف علي إلى أن انفجرت ضاحكاً . وهذا ما جعلني أكثر تثبتاً من مظهري الجديد .

وكنت قد جنّدت فرانكي للعمل معي في هذا الفيلم في نهاية السنة الماضية . فكان عليه أن يستقبل المجموعات السينمائية ليعطيهم التعليمات التمهيدية . ويقوم بكل الترتيبات الضرورية لعملنا دون أن تتشابك ترتيباته هذه مع نشاطات إيلينا . وكان سجلّه نظيفاً لذلك كان نفيه إلى فنزويلا إثر الانقلاب إرادياً، فلم توجه ضده أية اتهامات . ومنذ ذلك الحين قام بعدة عمليات غير شرعية داخل التشيلي حيث كان يستطيع أن يتجول بحرية تامة . وشهرته في



عالم السينما بالإضافة إلى شخصيته الجذابة وسرعة بديهته وجرأته جعلت منه شريكاً مثالياً لهذه المغامرة . وحسب الاتفاق دخل التشيلي برّاً من حدود البيرو قبل أسبوع لكي يستقبل كل مجموعة من مجموعات التصوير وينسق أعمالها وهي منفصلة . وقد بدأوا العمل فعلاً . فالمجموعة الفرنسية بدأت التصوير في الشمال من أريكا إلى فالباريزو طبقاً لبرنامج مفصّل وضعناه أنا ورئيسها في باريس قبل عدة أشهر . وكذلك كانت تفعل المجموعة الهولندية في الجنوب . أما الإيطاليون فكان عملهم في سانتياغو تحت إشرافي وعليهم أن يكونوا دوماً جاهزين لأي تصوير طارىء . وطلبنا من المجموعات الثلاث عدم تفويت أية فرصة للتحدث مع الناس عن سلفادور الييندي عندما يشعرون أنهم غير مراقبين . فلقد رأينا أن الحديث عن الرئيس الشهيد كان أفضل نقطة انطلاق لاستمزاج رأيهم المواطنين حول حالة البلد الراهنة والنظرة إلى المستقبل .

كان لدى فرانكي بيان مفصّل لخطّ تطواف كل مجموعة فكان بوسعه الاتصال بهم في أية لحظة لينقل إليهم تعليماتي تباعاً . كما عليه أن يقوم بدور سائقي الخاص . وكنا نستأجر سيارات من وكالات مختلفة نستبدلها كل ثلاثة أو أربعة أيام . وقلّما انفصلنا طوال فترة التصوير .

ثلاثة رؤوس مقطوعة تسقط جنرالاً

بدأنا العمل في التاسعة صباحاً . كانت بلازا دي أرماس تحت أشعة شمس الخريف الجنوبية الشاحبة مشهداً لم أر مثيلاً له في حياتي . وكانت المجموعة الإيطالية قد استيقظت مسرعة لتصوير



مظاهر حياة الصباح العامة : المتقاعدون يقرأون جرائدهم على عتبات السلالم الخشبية . والمسنون يطعمون الحمائم . وهناك بائعون متجولون ، وفنانون يقومون برسم فوري لمن يرغب من المارّة . وماسحو الأحذية الذين يشتبه بهم أنهم مخبرو شرطة . ومصورون بآلاتهم العتيقة ذات الأغطية السوداء . وأطفال يحملون البالونات المزوّقة فوق رؤوسهم وهم يحيطون بعربات بائعي البوظة . بعض الناس يخرجون من الكنيسة . وفي إحدى زوايا الساحة وقفت الجماعة المألوفة من العاطلين عن العمل ينتظرون من يستأجرهم لإحياء حفلات خاصة وهم من الموسيقيين المشهورين والسحرة والمهرّجين والمخنّثين . وفي هذا الصباح الجميل أيضاً أحاطت بالساحة دوريات من الشرطة المدججة بالسلاح . وتعالت أغانٍ شعبية من مكبرات الصوت في أعلى شاحنات البيع المجاورة .

واكتشفت ، فيما بعد ، أن غياب القوة القامعة ظاهرياً من الشوارع لا تنطلي إلاّ على من كان حديث العهد في البلاد . فقد كانت هناك دوريات مباغتة تترصد في محطات المترو الرئيسية في كل الأوقات كما أن الشاحنات المزوّدة بخراطيم المياه جاهزة دوماً لأن تخرج من الأزقة الجانبية لقمع أيّ مظهر من مظاهر الاستنكار اليومي . وكانت الحراسة على أشدها في بلازا دي أرماس ، وهي مركز سانتياغو العصبي حيث مكاتب التضامن الكنسي برئاسة الكاردينال سيلفا هنريكز يؤيده كل من يحارب في سبيل عودة الديمقراطية إلى تشيلي . ولهذا المركز تأثير أخلاقي لا يمكن التصدي له . ويجد كل مضطهد ملاحق مهما كان نوع اضطهاده مأوى وتكافلاً إنسانياً في الساحة المشمسة لهذا البناء الحصين .



والقلعة هذه هي ملاذٌ يعتمد عليه كل محتاج وخاصة المعتقلون السياسيون وعائلاتهم . والمطرانية هـذه هي الوحيدة التي تشجب قضايا التعـذيب وتشنّ الهجمات للدفـاع عن اليائسين وضـد الجور مهما كان نوعه .

وقـد صدّت عـدة محـاولات للدكتاتـوريـة ضـد المــطرانيـة (الفايكاريات) قبل دخولي البلاد بعدة أشهر . وفي نهاية شباط من العام ١٩٨٥ خطف ثلاثة مناضلون معارضون بطريقة استعراض للقوّة بحيث لم يعد هناك مجـال للشك فيمن كـان المسؤول عن ذلك . الأول عـالم اجتمـاع وهـو جـوزيـه مـانـويـل بـارادا ، مـوظف في المطرانية ، احتجز أمام أولاده خارج مدرستهم ، وقد أُوقفَ السيـر على تقاطع ثلاث طرق ، كما قامت دوريات من المروحيات التابعة للجيش بالتحليق فوق المنطقة .

أما الحركيّان الآخران فقد احتجزا في أجزاء أخرى من المدينة يفصل بينهما بضع ساعات . أحدهما مانويل غيـرّو . رئيس جمعية اتحاد الأساتذة في تشيلي . والآخر سانتياغو ناتينـو ، فنان تخـطيط موهوب ، ولم يعرف قبلاً بنضاله . ويـا لهول الأمـة ! فقد وجـدت جثث هؤلاء الرجال الثلاثة في الثـاني من آذار من سنة ١٩٨٥ على طـريق مهجـورة قـرب المـطار الـدولي . وأعنـاقهم مفصــولـة عن أجسادهم التي تحمل آثار التعذيب . وصرَّح يومذاك الجنرال قيصر منـدوزا ديوران ، قـائد الشـرطة وأحـد أعضـاء المجلس السيـاسي الانقلابي ، للصحافة بأن الجريمة الثلاثية هي نتيجة عراك بين عناصر شيوعية تـابعة لمـوسكو . ولكن الجنـرال مندوزا نفسـه كان متهمّـاً بارتكاب هذه الجرائم لذلك أجبر على التخلي عن منصبه في الحكومة . ومنذ ذلك الحين محت أيدٍ مجهولة اسم كال بونت ،



وهو أحد الشوارع الأربعة التي تؤدي إلى بلازا دي أرماس ، وأبدلته باسم جوزيه مانويل باراداه . وهو الاسم الذي يعرف به الآن .

أهنئك لكونك أرغوائياً

وكان جو الاضطراب الذي ساد إثر المأساة الوحشية تلك ، ما زال يسم صباح ذلك اليوم الذي ظهرت فيه أنا وفرانكي في بلازا دي أرماس كعابري سبيل عاديين . ورأيت مجموعة التصوير الإيطالية جاهزة في المكان الذي كنت أنا وغراتسيا قد اخترناه الليلة الماضية . ولاحظت أنها قد رأتنا أنا وفرانكي هناك . ابتعد عني فرانكي واستلمت أنا إدارة الفيلم طبقاً لأسلوب وضعناه قبلاً مع كل من المخرجين الثلاثة . سرت في البدء بخطوات بطيئة فوق الممرات المرصوفة بالحصى متوقفاً في نقاط مختلفة لأحَدِّد لغراتسيا مسافة كلّ لقطة . ثم تراجعت إلى الوراء لأحدِّد زوايا الكاميرا . ولم يهتم أحدنا آنذاك بتفاصيل الحضور القمعي المترصد في الشوارع . كان همّنا هذا الصباح ينصبّ على التقاط صور يوم عادي بالإضافة إلى التركيز على سلوك الناس وقد لاحظت الليلة قبل البارحة أنهم أكثر تحفظاً في الكلام من ذي قبل . كانوا في عجلة من أمرهم لا يكادون يكترثون لما يدور حولهم . ومن عادة التشيليين أنهم يكثرون من الإشارة أثناء حديثهم . والذين في المنفى ما زالوا كذلك . لكن الذين كانوا يتحادثون في البلازا ذلك الصباح بدوا مكبوتين ولم يستخدموا أيديهم أثناء الحديث . ورحت أجول بين الجماعات ، وفي جيبي مسجّلة حسّاسة لألتقط نتفاً من أحاديثهم يمكنها مساعدتنا ليس لتنظيم هذه المرحلة من التصوير وحسب بل لتعيين وجهة الفيلم أيضاً .



بعـد اختيار نقـاط التصويـر جلست في السـاحـة لأدوّن بعض الملاحظات . فكان المقعد الذي وقع عليه اختياري مغطىً بنقشات لقلوب وأحرف أولى لأسماء أجيال من المحبين محفورة في الواحه الخشبية الخضراء . ولم أحضر دفتر مـلاحظاتي معي لـذلك رحت أدوّنها على علب سجائر «الجيتان» الفارغة التي كنت قد موّنت نفسي بها من باريس . وواظبت على ذلك طول فترة التصوير . ومع أنني لم أحتفظ بالعلب لهذا السبب فقد تبينت لاحقاً أن هذه الملاحظات أصبحت سجلاً لإعادة بناء تفاصيل رحلتي في هذا الكتاب .

وفيما أنا مشغول بالكتـابة لاحـظت أن المرأة التي تجلس إلى جانبي كانت ترقبني بطرف عينها . كانت متقدمة في السنّ ترتدي ثوباً ذا نمط قديم يرتديه أبناء الطبقة المتوسطة السفلى . وتضع قبعة عتيقة، وترتدي معطفاً ذا ياقة رثة من الفرو. ولم أفهم ماذا تفعل سيدة كهذه هناك وهي وحيدة صامتة . لم تنظر في أي اتجـاه خاص ولم يرفّ لها جفن حين راحت الحمائم ترفرف بجناحيها فوق رؤوسنا أو تلتقط الحب عند أقدامنا . شرحت لي فيمـا بعد أنهـا أصيبت ببرد قارس أثناء القداس ولذا جلست في الشمس عدة دقائق قبل أن تأخذ المترو (طريق كهربائي نفقي) إلى بيتها .

رحت أتظاهر أنني أقرأ الجريـدة فلاحـظت أنها تتفحصني من رأسي إلى أخمص قدمي . لا شك أن نوع ثيابي قد أثار انتباهها إذ لا يشاهد عادة في الساحة في تلك الساعة من النهار . ابتسمت لها فسألتني من أين أنا ، أدرت مفتـاح آلة التسجيـل بضغط غير مـرئي على جيب سترتي وقلت : « أنا ارغوائي » .

قالت : « أوه ! أهنئك على حسن طالعك » .



وعرفنا كلانا أنها كانت تشير إلى رجوع الأرغواي إلى نظام الانتخابات الديمقراطي . تكلمت بلهجة من يحنُّ إلى ماضيه . تظاهرت باللامبلاة لكي تنطلق في الحديث على سجيتها وتحدِّثني عن نفسها بصراحة فلم تفعل مع أنها تكلمت بصراحة على فقدان الحرية الشخصية وعلى مأساة البطالة في تشيلي . ثم أشارت إلى جماعة العاطلين عن العمل من الموسيقيين ، والمهرجين ، ومرتدي أزياء الجنس الآخر ، الذين كان عددهم يتزايد يوماً بعد يوم . وقالت : « انظر إلى أولئك الناس ! إنهم يقفون الأيام بطولها ينتظرون وظيفة يحصلون عليها ، إن بلدنا جائع حقاً ! » .

وأطلقت لها عنان الحديث . وبعد مرور نصف ساعة على قيامي بجولة في الساحة اعتذرت وبدأت الجولة الثانية ، وطلبت غراتسيا إلى المصور أن يلفّ الفيلم دون المجيء إليَّ لإقفاله وأن يتأكّد أنه لا يجذب انتباه الجند نحوي . لكنّ ما حدث هو عكس ذلك تماماً ، إذ لم أستطع أنا نفسي أن أحوّل ناظريّ عن الكاربينيرو فهم ما زالوا يبهرون ناظري بشكل لا يقاوم .

حقاً كان تجار الأرصفة يرتادون سانتياغو دوماً. لكنني لا أذكر أنني رأيت قطّ عدداً بهذه الضخامة . فلا تكاد تجد بقعة في أي مكان من المركز التجاري لا يقفون فيها بطوابير طويلة صامتة ، يبيعون كل ما يخطر ببالك . إنهم كثر وغير متجانسين ومجرد وجودهم هناك يكشف المأساة الاجتماعية . فهناك، جنباً إلى جنب، الطبيب الذي حرم من أداء وظيفته ، والمهندس المعوز ، وهناك امرأة عليها طابع دوقة وهي تحاول أن تبيع بأيّ ثمن خزانة ثياب امتلكتها في أيامها البيض . وهناك أولاد أيتام يبيعون بضائع



مسروقة ، وربّات منازل يبعن الخبز الذي صنعنه بأيديهن . وكثير من هؤلاء هم مهنيّون ماهرون أضاعوا كل شيء ما عدا كرامتهم ، يقفون وراء سلعهم مرتدين ثيابهم وكأنهم ما زالوا في مكاتبهم السابقة . ففي إحدى المرات أخذت سيارة تاكسي ، وكان السائق سابقاً تاجر أقمشة ثرياً ، فجال بي نصف المدينة بحيث استغرقت الرحلة بضع ساعات ، وفي نهاية المطاف رفض أن يقاضيني .

وبينما راح المصور يأخذ لقطات خلفية للساحة ، انخرطت أنا في صفوف الناس ألتقط نتفاً من حوارهم لأعدّ المدرج الصوتي للفيلم. وحرصت على عدم تعريض أحد للشبهة إن أمكن التعرف عليه إن ظهر على الشاشة . وكانت غراتسيا تنتظر لأشير إلى زاوية أخرى للتصوير وتنبهت لذلك. اتبعت غراتسيا تعليماتي بدقة فبدأت بأعلى المباني ثم انحدرت نزولاً ثم التفتت إلى الجوانب بتصوير بانورامي وانتهت بتصوير الكاربينيرو . أردنا تصوير التوتر البادي على وجوههم ، وكان يزداد بروزاً بازدياد الحركة في الساحة خاصة لدى اقتراب منتصف النهار . ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفوا أن عدسة الكاميرا تلاحقهم وأنهم مراقبون فطلبوا إبراز الإذن بالتصوير .

رأيت غراتسيا تعرضه على الضابط الذي بدا أنه قد اقتنع . فشعرت بالراحة وأكملت تجوالي . وقد أخبرتني غراتسيا لاحقاً أن الكاربينيرو هذا نفسه سألها ألاّ تصور رجاله ، ولكنه سكت عندما ذكرت له بأن لا استثناء كهذا مذكور في الإذن الذي معها . فقد تذرّعت بكونها أجنبية كعذر لعدم إطاعة أمر غير مقرّ من السلطة العليا . وهذا ما برهن على أن استخدام مجموعات تصوير أوروبية في تشيلي قدّم الامتيازات التي كنا قد استبقنا رؤيتها .



من بقي ، كان أيضاً منفياً

وأصبح الكاربينيـرو هاجسي . اقتـربت منهم جدّاً عـدة مرات أبحث عن ذريعة لأحدثهم . وأخيراً وبرغبة جامحة تقدمت من دورية لهم وسألت أحدهم عن بناء ضخم في ساحة المدينة كان الزلزال قد دمّره في آذار الماضي ، ثم أعيد بناؤه . ولم ينظر الشرطي إليّ ولا حوَّل نظره عن حركة الناس في الساحة . وقام زميله بنفس التصرف لكنه كان ينظر إليّ شزراً بطرف عينه من حين إلى آخر . وبدأ يفقد صبـره معي حين لاحظ سخـافـة أسئلتي المتعمـدة . ثم نـظر إليّ بسخط وعبـوس وصرخ بصـوت كالنبـاح : « اغـرب عن وجهي ! » ولكنني كسرت السحر ، وانقلب التلهّف الشديد الذي أثاره الشرطي في نفسي إلى حالة من النشـوة ، وبدل أن أطيعـه رحت أملي عليه درساً عن كيفية إشباع حشرية غريب مسالم . ولم أفطن أن لهجتي الأرغوائية المزيّفة لن تستطيع مواجهة مثل هذا الاختبـار الصعب ، حتى سئم من محاضرتي فطلب تذكرة هويتي . ولم أشعر بمثل ذلك الإرباك وتلك الصدمة من الخوف والهلع طول فترة رحلتي بمثل ما شعرت به في تلك اللحظة . وخطرت لي أفكـار متعددة كـأن انهار مؤقتاً ، أو أقاوم ، وحتى أن أفرّ بالرغم من تأكدي بأنهم سيقبضـون عليّ . وفكرت بإيلينا التي لا يعرف غيـر الله أين هي الآن . الأمل الوحيد الذي لاح لي هو المصوِّر الذي يسجّل كل ذلك على شريطه السينمائي ، وهو دليل لا يقبل الجدل على توقيفي .وفرانكي أيضاً لا بدّ أن يكون قريباً إذ لا يمكن أن يتركني خارج إطار مشاهدته . وكان أسهل شيء طبعاً هو التعريف عن نفسي بجواز سفري الذي صمد إزاء كل الاختبارات في المطارات المتعددة . لكنني



خفت من التفتيش إذا اقترفت خطأ فادحاً في عدم إفراغ حقيبة يدي من تذكرة هويتي التشيلية وبطاقة التسليف المدوّنة باسمي الحقيقي . وبعد برهة من التردد سحبت الجواز وقدّمته له . ولم يدر ماذا يفعل فألقى نظرة سريعة على الصورة في الوثيقة ثم أعاده إليّ بطريقة أكثر تودّداً ، وسأل : « ماذا تبغي أن تعرف عن البناء ؟ » فزفرت زفرة طويلة ثم قلت : « لا شيء ! كنت أسأل لمجرد السؤال » .

وقد أنقذتنى هذه الحادثة من عقدة الكاربينيرو طول المدة الباقية التي قضيتها في تشيلي . فمنذ تلك اللحظة رحت أنظر إليهم نظرتي إلى التشيليين العاديين أو حتّى السريين وما أكثرهم هناك . وتماديت فطلبت منهم في عدة مناسبات أن يؤدّوا لي بعض الخدمات وكانوا يستجيبون بكل احترام . وفي إحدى المرات، وكان ذلك في آخر يوم لي في تشيلي ، كنت شديد التهور في طلبي إلى درجة أنني أثرت حفيظة إيلينا التي لم تستطع أن تستوعب كيف يمكن لأمرىء أن يقترب من الشرطة لا لشيء سوى إراحة أعصابه . وكانت علاقة العمل بيني وبين إيلينا قد بدأت بالتفسخ . وأستطيع على الأقل الاعتراف بأنني قد ندمت على تسرعي هذا قبل أن تلومني هي أو غيرها . فعندما أعاد الكاربينيرو الجواز لي أشرت لغراتسيا أن تلفّ شريط التصوير. واندفع فرانكي نحوي وكان قد شهد الحادثة بكاملها وهو يحبس أنفاسه . طلبت إليه أخذي من الفندق بعد الغداء . فقد أردت الانفراد بنفسي .

جلست على مقعد خشبي أقرأ الجريدة ، لكن عينيّ كانتا تنظران إلى الحروف دون أن تريا شيئاً ، إذ أن عمق ما كنت أشعر به وأنا جالس في ذلك الصباح الخريفي المضيء جعلني عاجزاً



تماما على التركيز . فجأة دوى مدفع الساعة الثانية عشرة فتفرقت الحمائم مذعورة ، وتعالت نفحات أغنية غراسياس ألافيدا من مصلصلة [1] الكنيسة للمغنية الرائعة فيوليتا بارّا . بدا ذلك أكبر من أن يحتمل . فكرت في فيوليتا . كم مرة عانت التشرد والجوع في باريس متمسكة أبداً بإبائها وعزة نفسها . لاحقها النظام باستمرار . أهمل أغانيها وسخر من ثورويتها . كان يجب أن يموت رئيس تشيلي ومسدسه في يده ، وأن تغرق تشيلي في بحر من الدماء لم تعرف له مثيلاً في تاريخها وأن تنتحر فيوليتا بارّا ، كل ذلك قبل أن تكتشف بلدها الحقيقة الإنسانية السامية لأغنياتها وجمال تلك الأغنيات . حتى « الكاربيناريون » كانوا يصغون إليها بشغف دون أن يدركوا من هي وماذا كانت تعتقد ولماذا غنت ؟ وكيف يمكن أن تحتقرهم لو وجدت هناك في هذا اليوم الخريفي الجميل .

قصدت وحيداً مطعماً في أعالي المدينة كنت أتردد عليه غالباً برفقة « ألي » في فترة خطوبتنا. المكان على حاله . الطاولات في الخارج تحت شجر الدردار . الأزهار تغطي المكان ، المطعم وحده لم يعد كما كان . بدا وكأنه متوقف عن الخدمة . لم أجد فيه أحداً . انتظرت طويلاً فلم يأت أحد لخدمتي . أخذت أتذمر ، ومع ذلك انتظرت حوالي الساعة حتى قدمت لي وجبتي من اللحم المشوي . وما كدت أنتهي من تناول طعامي حتى دخل زوجان لم أرهما مذ كنت أنا وألي زبونين دائمين هناك . إنهما أرنستو والفيرا صاحبا دكان صغير يبعد قليلاً عن المكان يبيعان فيه منحوتات

---

(١) مصلصلة : مجموعة أجراس مثبتة تقرع بمطارق تعمل أوتوماتيكياً أو بواسطة لوحة ذات مفاتيح . (ملاحظة المترجم) .



وأيقونات ومسابح ومذاخر وما تزين به الجنائز . كانا زوجين غير متزمتين ، يميلان للمرح ، وكنا نسر بالبقاء معهما إلى وقت متأخر في أمسيات السبت الصاخبة حيث نشرب الخمر ونلعب . أراهما الآن داخلين يمسكان أيدي بعضهما تماماً كما في السابق . فوجئت بإخلاصهما للمطعم رغم كل التغيير الذي أصاب تشيلي . فوجئت كم تقدم بهما السن . لقد كانا مرآة عكست لي صورة تقدمي أنا أيضاً في السن . أدركت أنهما لم يتعرفا علي فلم يحدقا بي كما فعلت أنا ، إذ كنت متنكراً بقناعي الأرغوائي . جلسا إلى طاولة قريبة مني . أخذا يتحدثان بنبرات عالية ولكن أقل حدة مما في السابق . نظرا أحياناً إلي ولكن دون فضول ودون أدنى معرفة وكأننا لم نجلس يوماً معاً إلى طاولة واحدة فرحين مسرورين . عرفت في تلك اللحظة كم كانت سنوات النفي طويلة ومدمرة ليس فقط بالنسبة لمن غادر البلاد مثلي وحسب ـ كما كنت أظن قبلاً ـ بل وبالنسبة لأولئك الذين بقوا أيضاً .




مكتبة
الفكر الجديد

جملت سانتيافو الخمس الأصلية



تابعنا التصوير لخمسة أيام أخرى في سانتياغو . كان ذلك وقتاً كافياً لاختبار أسلوبنا في العمل . خلال هذه المدة كنت على اتصال دائم بالمجموعة الفرنسية في الشمال والهولندية في الجنوب . كانت هذه الاتصالات مثمرة جداً . ورويداً رويداً أخذت أدير المقابلات التي أجرينا مع قادة العمل السري ومع أولئك السياسيين القلائل الذين كانوا يعملون علانية .

صرت الآن متكيفاً مع وضعي الجديد كشخصية أخرى ، وإن لم تكن التضحية سهلة نظراً لوجود عدد كبير من الأقارب والأصدقاء بدءاً بوالدتي إضافة إلى لحظاتٍ من حياتي علي أن أعيشها بشكل مختلف . ولكن علي أن أتناسى كل هذا العالم ، على الأقل حتى ينتهي التصوير . وهكذا كبت أعمق مشاعري وعشت حالة غريبة من النفي داخل بلدي . تجربة لا يمكن تصور ما هو أكثر مرارة منها .

نادراً ما كنت دون حراسة في الشارع . ومع ذلك فإنني أشعر دائماً أنني وحيد . أنى ذهبت عيون المقاومة تراقبني دون أن ألاحظها . المرة الوحيدة التي طلبت فيها سحب حمايتي كانت عندما توجب علي أن أقابل أشخاصاً هويتهم غاية في السرية إلى حد أنني لم أستطع تقديمهم لأصدقائي الجدد . وبعد أن أنهت إيلينا مساعدتي في بدء العمل ، وجدتني ذا خبرة كافية للاعتماد على نفسي دون حوادث مؤسفة . تمَّ إخراج الفيلم وفقاً للخطة ولم يتعرض أحد زملائي لأي إهمال من قبلي . ولكن بعد أن غادرنا « التشيلي » قال لي أحد الأشخاص المعنيين بالعملية ممازحاً : « لم تنتهك قط حرمة أمن نظام في تاريخ العالم كله بالخطورة وبعدد المرّات بالشكل الذي فعلته أنت » .



قبل نهاية الأسبوع الأول في سانتياغو ، النقطة الأساسية كانت أننا استبقنا البرنامج المعد . تبعنا في التصوير نصاً مكتوباً بشكل مرن يسمح بالتغييرات أثناء العمل . في الواقع أثبتت هذه الطريقة أنها الوحيدة الممكنة في مدينة مليئة بالمفاجآت في كل لحظة وتوحي لنا بأفكار سينمائية لم نكن نحلم بها قبل وصولنا .

كنا قد انتقلنا بين ثلاثة فنادق حتى ذلك الحين . « الكونكيستادور » مريح وقريب ولكنه يعتبر نقطة ساخنة . لدينا من الأسباب ما يدفعنا لتغييره فهو أحد الفنادق المراقبة جيداً . ربما لم يكن هناك فارق يذكر بينه وبين فنادق الدرجة الأولى من ذوي الخمسة نجوم ، إذ أنها جميعاً تعرف إقبالاً مستمراً من الأجانب الذين كانوا موضع شبهة قوات حفظ الأمن . صحيح أن السجل بالنسبة لفنادق الدرجة الثانية يراقب بتشدد أقل من قبل الشرطة ، ولكن وجودنا قد يلفت الانتباه بشكل أكبر . ما بدا لنا أكثر أماناً هو التنقل كل ثلاثة أو أربعة أيام من فندق إلى آخر دون أن نعود مطلقاً إلى فندق نزلناه قبلاً . كان يتملكني خوف شديد من العودة إلى مكان سبق أن جازفت بالمرور فيه . هذا الخوف يعود إلى الحادي عشر من أيلول سنة ١٩٧٣ عندما قصف الطيران قصر المونيدا . كانت الفوضى تعم المدينة . وكنت قد عدت إلى مكاتب الأفلام التشيلية لأرى مدى إمكانية مقاومة الانقلاب . كنت أستطيع مغادرة المكان دون مجازفة ، ولكن بعد أن أوصلت بسيارتي مجموعة من الأصدقاء لديهم سبب للخوف على حياتهم إلى فورستال بارك ، ارتكبت خطأ فادحاً إذ عدت إلى بناية التصوير السينمائي . وكما سبق لي وذكرت ، لقد كانت أعجوبة النجاة بحياتي على يد جندي صدف أنه يهوى التصوير السينمائي فأنقذني .



من بين كل الفنادق التي نزلناها ، صادفتنا مشاكل في اثنين منها فقط . الأول كان الشيراتون . ففي الليلة نفسها التي نزلنا بها فيه ، وبعد أن تمكنت أخيراً من النوم ، رن جرس الهاتف ، كانت إيلينا تجري مقابلة سرية استمرت أكثر مما هو متوقع لها وكان عليها أن تبقى هناك تلك الليلة بسبب حظر التجول كما سبق وحدث ذلك مراراً ، نصف نائم أجبت عن المكالمة غير مدرك أين أنا ولا متذكر من أكون . صوت امرأة بلهجة تشيلية تسأل عني باسمي المستعار . كنت على وشك القول بأنني لا أعرف شخصاً بهذا الأسم عندما انتبهت تماماً للدلالات التي يمكن أن تكون وراء مخابرة كهذه في مثل تلك الساعة وفي مثل هذا المكان .

عاملة السنترال في الفندق حدثتني عن مخابرة من مسافة بعيدة . لم يكن يعرف مكان إقامتي سوى فرانكي وإيلينا ومن غير المحتمل أن يقدم أحدهما على الاتصال بي في مثل هذه الساعة متظاهراً بأنه يتصل من مكان بعيد إلا إذا كانت مسألة حياة أو موت . وهكذا قررت الإجابة . إنه صوت ينضح بالشهوة لامرأة تتكلم الإنكليزية بطلاقة تقول : « عزيزي » « حبي » ، « حبيبي العزيز » . عندما تمكنت أخيراً من إقناعها بأنني لا أتكلم الإنكليزية تنهدت برقة وتمتمت قائلة : « اللعنة » وأقفلت الخط . عبثاً حاولت مع عاملة التلفون لتوضح لي الأمر ، ولكنني أكتشفت أن نزيلين آخرين في الفندق يحملان اسماً مشابهاً للاسم الذي أنتحله مسجلان في الفندق . لم أتمكن من النوم بعد ذلك . وحالما وصلت إيلينا حوالي السابعة صباحاً انتقلنا إلى فندق آخر .

الحادثة الثانية كانت مخيفة إذا ما عاودنا أحداثها وتأملناها . كنا قد نزلنا في فندق كاريرا العتيق الفخم حيث يمكن رؤية قصر



المونيدا بكامله من خلال النوافذ . بعد أيام قليلة من إقامتنا فيه نزل زوجان شابان في الغرفة المجاورة لغرفتنا . نصبا على حامل آلة تصوير ثلاثي القوائم قذيفة بازوكا يعمل أوتوماتيكياً بحيث ينفجر لاحقاً وصوباه باتجاه مكتب بينوتشه . كانت العملية من الدرجة الأولى ومعدة جيداً . وقد كان بينوتشه في مكتبه في تلك اللحظة بالذات ، ولكن قوة الانفجار أوقع القائمة الثلاثية وانفجرت القذيفة داخل الغرفة .

النقاط الخمس :

في يوم الجمعة من الأسبوع الثاني قررت أنا وفرانكي أن نقوم بجولة في السيارة داخل البلاد . كل ما بقي علينا أن نقوم به في سانتياغو هو التصوير في قصر المونيدا والمقابلات مع شخصيات معارضة في العلن ومع قادة سريين . تدبير المقابلات كان عملاً معقداً وتمكنت إيلينا أن تتدبر هذا الأمر بمهارة فائقة .

لم يرفض الطلب لتصوير القصر ولكن الموافقة الرسمية لن تصدر قبل أسبوع على الأقل مما أتاح الوقت الكافي لي ولفرانكي لإتمام العمل في الداخل . وعلى ضوء ذلك اتصلنا تلفونياً بالمجموعة الفرنسية طالبين منها العودة إلى سانتياغو فور انتهائها من التصوير في الشمال وبالفريق الهولندي كي يكمل عمله بالجنوب مع الفريق الإيطالي .

أفدت من يوم الجمعة هذا لالتقاط صور لي في الشوارع بحيث لا يمكن للنظام الديكتاتوري فيما بعد أن يزعم أنني لم أقم بإخراج الفيلم داخل التشيلي . اخترت خمسة أمكنة مميزة في سانتياغو :



خارج قصر المونيدا ، فورستال بارك ، جسور نهر موبوتشو ، تلال سان كريستوبال وكنيسة سان فرنسيسكو . قررنا عدم البقاء أكثر من ساعتين في أي من هذه الأمكنة أي ما يعادل العشر ساعات فيها جميعاً . كانت غراتسيا قد تفقدت هذه الأمكنة وحددت مواضع نصب آلات التصوير قبل ذلك بأيام عدة ، وكان علي أن أصل بعد الفريق بخمس عشرة دقيقة ، ودون أن أتحدث إلى أي من أفراده أندمج داخل المشهد ودون أن أعطي غراتسيا التعليمات المتفق عليها سلفاً بشأن توجيه اللقطات .

يحتل قصر المونيدا مساحة واسعة . واجهتاه الرئيسيتان تقابلان « الآلاميدا » لجهة « البلازابيلنس » وعلى الجهة الأخرى حيث تقع مكاتب الرئاسة مقابل « البلازا دي لاكونستيتيسيون » . إثر الانقلاب وإذ كان البناء شبه مدمر نقلت هذه المكاتب إلى البناء الذي كانت تشغله بعثة الأمم المتحدة للتنمية والتجارة . وحرصاً على الشرعية فإن الحكومة العسكرية أطلقت على هذه الدوائر المؤقتة اسم أحد رجالات التشيلي الليبراليين دون دييجو بورتاليز . وقد بقيت هذه المكاتب هناك حتى الانتهاء من ترميم قصر المونيدا بشكل تام بعد ثلاث سنوات . بالإضافة إلى إعادة ترميم القصر فقد تم بناء قلعة تحته محصنة يقود إلى موقف للسيارات تحت « البولفار » . ومع ذلك يقال في سانتياغو أن مزاعم بينوتشه في الشرعية التاريخية لنظامه لم تستقم بسبب عدم تمكنه من الظهور مرتدياً وشاح « أوهيجنس » الرئاسي . هذا الرمز الذي ارتداه كل من اعتلى سدة الرئاسة في تشيلي كان قد فقد أثناء قصف قصر المونيدا . وقد حاول أنصار الديكتاتور اختلاق قصة مفادها أن أول ضابط وصل القصر أنقذ هذا الوشاح من ألسنة اللهب ولكن ذلك بقي مجرد ادعاء



فارغ .

في الساعة التاسعة كان الفريق الإيطالي قد صور الواجهة المطلة على موقع « الألاميدا » أمام تمثال أب البلاد « برناردو أوهيجنس » حيث شعلة دائمة اللهب « شعلة الحرية » . بعد ذلك انتقل إلى الجهة المقابلة حيث تجري مراسم تبديل الحراس التي يقوم بها مرتين في اليوم النخبة من « الكارابينيرو » أكثر الوحدات العسكرية أبهة واستصراخاً في قصر الدولة العسكرية كما في قصر باكنغهام وإن كان عدد المتفرجين هنا أقل، علماً أن المراسم تجري وفق الأبهة البراقة نفسها وإن كانت الحراسة هنا أشد إحكاماً . وبالفعل فعندما رأى الحراس الإيطاليين يتهيأون للتصوير اتجهوا نحوهم بسرعة يسألونهم عن التصريح الذي كان قد طلب أيضاً في الجهة الأخرى . هكذا كان الأمر دائماً ! حالما تظهر كاميرا في أي مكان في المدينة يأتي « الكارابينيرو » يسألون عن الإذن بالتصوير .

وصلت أنا في اللحظة المناسبة تماماً . إيغو ، الكاميرمان شاب لطيف متفانٍ في عمله ، بدا سعيداً جداً بمغامرة التصوير هذه وكأنه سائح ياباني . رتب الأشياء بشكل يسمح له أن يعرض أوراقه بيد بينما يصور باليد الأخرى الكارابينيرو دون أن يثير أية ريبة . كان فرانكي قد أنزلني من السيارة على مسافة قصيرة من مكان التصوير الذي وصلت إليه سيراً على الأقدام، على أن يلاقيني بعد ذلك بربع ساعة . الصباح بارد وضبابي ، نموذج لأولى أيام سانتياغو الخريفية . على الرغم من المعطف الشتوي الذي ارتديه ، أخذت أرتجف برداً . لقد قطعت المسافة بخطى سريعة بين الجماعات المسرعة لكي أشعر بالدفء ، اجتزت مسافة أكثر بعداً لأتيح للفريق إبراز بطاقاته للجنود وعندما عدت أخذوا لقطات لي وأنا أسير قرب



قصر المونيدا دون أية صعوبة . بعد خمس عشرة دقيقة أخذت المجموعة المفقود وتوجهت نحو الموقع الثاني . أما أنا فقد ذهبت إلى سيارة فرانكي في « كال ريكالم » عبر محطة المترو « لوس هيروس » . ثم انطلقنا في السيارة بكل تؤدة .

استغرق تصوير فورستال وقتاً أقل مما قدرنا . ولكن حنيني إلى الوطن جعلني أتأخر بعض الوقت . إن « البارك » جزء جميل ومميز في سانتياغو ، خاصة تحت مطر من أوراق الشجر الصفراء في ذلك الصباح الخريفي الرقيق . مدرسة العلوم الفنية كانت هناك . بعد عدة شهور مَن قدومي من قريتي قدمت على مدارجها أول نتاج مسرحي لي . بعد ذلك وبحكم كوني منتجاً سينمائياً ناشئاً كنت أجتاز البارك كل يوم تقريباً . إن ضوء المساء الناعم المرسل على خضرة البارك بدا مشدوداً إلى الأبد إلى ذكريات أفلامي الأولى . والتقطت عدسات الكاميرا مشهدا لي وأنا أسير بين الأشجار الوارفة الظلال مصحوباً بهمسات المطر . تابعت مسيري من البارك حتى المركز التجاري حيث ينتظرني فرانكي .

انجلى الضباب وأصبح الطقس بارداً ، وللمرة الأولى منذ وصولي إلى هنا بدت سلسلة الجبال واضحة من بعيد . تقع سانتياغو في وادٍ بين جبال . تُرى سلسلة الجبال عادة من خلال غيوم التلوث . عندما وصلنا قبل الظهر بساعة تقريباً إلى « كال استادو » كان الشارع مزدحماً بالمارّة وبالداخلين إلى دور السينما لمشاهدة العرض اليومي الأول . سينما « ركس » المجاورة تقدم « أماديس » لميلوس فورمان الذي أتحرق شوقاً لمشاهدته ولكنني كبحت جماح رغبتي وذهبت للقاء فرانكي .



في الزاوية ظهرت حماتي !

أثناء التصوير صادفت العديد من المعارف والصحافيين والفنانين وحتى بعض السياسيين أثناء مرورهم في الشوارع بالقرب منا . ومع ذلك فلم يحدث أن نظر إلي أحدهم نظرة تدل على أنه عرفني . يوم الجمعة الماضي حدث أمر كان لا بد أن يقع عاجلاً أم آجلاً . شاهدت امرأة ذات مظهر مميز تتجه نحوي . كانت ترتدي ثوباً من التول مؤلفاً من قطعتين ، اسود اللون ودون معطف . لم أعرف من هي إلى أن صارت على بعد أقل من عشرة أقدام مني . إنها حماتي ليو . لم نكن قد تلاقينا في اسبانيا منذ ستة أشهر وحسب ولكنها كانت تعرفني جيداً إلى درجة لا يمكن معها أن لا تتعرف علي من مسافة قريبة كهذه . فكرت أن أدير ظهري ولكنني تذكرت أن علي أن أتماسك لأن ذلك يعرضني لخطر كشف هويتي إذ يمكن أن يتعرف أحد علي من الوراء . كنت شديد الثقة بحماتي بحيث أنها لن تصرخ من المفاجأة إذا ما عرفتني . ولكنها لم تكن وحدها . الخالة مينا أختها معها . وهي أيضاً تعرفني . كانتا تتحدثان بصوت منخفض ، تتوشوشان . ما خفته حقاً ردة الفعل المفاجئة . لم أكن لأشعر بالغرابة لو أنهما صرختا هناك في الشارع قائلتين : « ميغيل ، يا ولدي ! ها قد عدت ، ما أروع ذلك ! » . أو أي شيء من هذا القبيل . أضف إلى ذلك أن معرفتهما بأنني مع العمل السري في التشيلي يشكل مجازفة لهما .

ولما لم يكن هناك ما أقوم به تابعت سيري محدقاً في ليو بأكثر ما أمكنني من التركيز لأتبين على الفور إن كانت قد تعرفت علي . بالكاد رفعت عينيها وهي تمر والتقت عيني الجامدتين ونظرتي



الخائفة دون أن توقف حديثها مع الخالة مينا ثم نظرت إلي دون أن تراني . لقد مررنا قرب بعضنا إلى الحد الذي استطعت أن أشم رائحة عطرها ، وأرى عينيها الجميلتين اللطيفتين ، حتى أني سمعت صوتها الموشوش يقول بوضوح : « عندما يكبر الأولاد تصبح مشاكلهم هي الأخرى كبيرة » وتابعت طريقها .

ذكرت لها هذا اللقاء لاحقاً بواسطة التلفون من مدريد وقد تعجبت لأنها لم تعرفني . هزني هذا الحادث . بحثت عن مكان أجلس فيه وأستجمع قواي . ذهبت إلى دار صغيرة للسينما تعرض « جزيرة السعادة » . كان فيلماً يعرض كل شيء خلا ما يدعيه من أنه فيلم إيطالي إباحي . خلال عشر دقائق من العرض رأيت رجالاً نحيفين ونساء جميلات يقفزون إلى البحر في يوم رائع في مكان ما في الجنة . لم أحاول أن أركز تفكيري وإنما جعلت الظلام يساعدني على استعادة رباطة جاشي . لم أستطع أن أعرف قبل ذلك الحين كم كانت رتيبة وهادئة الأيام السابقة . في الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً وافاني فرانكي إلى الزاوية بين كال استادو وألاميدا وانتقلت إلى الموقع التالي : جسور موبوشو .

يجري نهر موبوشو عبر المدينة فوق مجرى من الحصى تعلوه جسور جميلة لا يتأثر بناؤها الحديدي الرائع بالهزات الأرضية . في أيام الجفاف كما كانت الحال في ذلك الوقت يتراجع تدفق الماء في النهر ليتحول إلى خيط راكد من الطين السائل . صفوف من البيوت المهدمة تنتصب على ضفتيه . في فصل الأمطار تتدفق السيول الجارفة من سلسلة الجبال ، فتفيض المياه وتطفو الأكواخ كالسفن الصغيرة على بحر من الطين لتصبح تحت رحمة الرياح والتيارات . في الأشهر التي تلت الانقلاب اشتهر نهر « موبوشو » بما حملته



مياهه من جثث مشوهة ألقيت فيه إثر مداهمات ليلية قامت بها قوات البوليس في الأحياء الفقيرة . أما الآن فإن الجياع من الناس ينازعون الكلاب والنسور على الفضلات التي تلقى في نهر « موبوشو » من الأسواق الشعبية . هذه المأساة هي الوجه الآخر من « الأعجوبة التشيلية » التي يتكفلها المجلس العسكري الحربي برعاية اقتصاديي مدرسة شيكاغو .

لم تكن التشيلي بلداً متواضعاً حتى عهد الييندي وحسب . فحتى البرجوازية المحافظة كانت تعتبر أن التزمت فضيلة وطنية . ولكي يعطي مظهراً فورياً ومدهشاً عن الازدهار قام المجلس العسكري بإلغاء التأميم عن كل شيء سبق وأممه أليندي . باع كل شيء ذا قيمة للرأسمالية الخاصة وللشركات المتعددة الجنسيات . فكانت النتيجة انفجاراً في البضائع الكمالية الخاطفة للبصر مما خلق وهماً في غنى ظاهر واستقرار اقتصادي .

وهكذا وخلال خمس سنوات استوردت البلاد بضائع أكثر مما استوردت في المئتي سنة التي سبقت مستدينة العملة الصعبة (الدولار) بكفالة البنك الوطني من نقود يحصل عليها من إلغاء التأميمات . وقامت الولايات المتحدة بالباقي مشتركة بالجرم مع وكالات الديون العالمية . وعندما استحقت الديون سقطت الأوهام : الأوهام الاقتصادية التي قامت على مدى ست سنوات انهارت في سنة واحدة . ازدادت ديون تشيلي الخارجية ٢٣ بليون دولار أي ما يقارب ستة أضعاف ديون إدارة أليندي . إن مشواراً قصيراً سيراً على الأقدام في الأسواق الشعبية على ضفاف نهر موبوتشي يعطي صورة قاتمة عن تأثير هذا مبلغ ١٩ بليون دولار .



الأعجوبة الاقتصادية تلك جعلت قلة من الأغنياء أكثر غنى وجعلت بقية المجتمع التشيلي أكثر فقراً وإدقاعاً .

الجسر الذي رأى كل شيء :

وسط مهرجان الحياة والموت ، كان جسر ريكوليتا عاشقاً مشوشاً ، يخدم الأسواق والمدافن على حد سواء . خلال النهار يشق مشيعو الجنائز طريقهم وسط حشد الناس . أثناء الليل وخلال منع التجول يشكل جسر ريكوليتا الطريق الوحيد إلى أندية التانغو لأفضل الراقصين ، حفاري القبور في النهار . أكثر ما استرعى انتباهي في يوم الجمعة ذاك ، بعد غربتي كل تلك السنين هو كثرة عدد العشاق الذين يتنزهون على الرصيف المطل على النهر . يلفّ كل عاشق خصر الآخر بذراعه . يبدو الواحد منهما وكأنه يحب الآخر ببطء غير آبه بالزمن الذي يمر مسرعاً بلا شفقة . لم أر حباً من هذا النوع سوى في باريس . وكان هذا منذ سنوات . تذكرت أن سانتياغو هي مدينة للعواطف الخاصة . وجدتني الآن أمام مشهد مات في باريس بالتدريج وزال على ما أعتقد من العالم. تذكرت عبارة سمعتها في مدريد ليس من مدة بعيدة : « يزهر الحب أيام الشدائد » .

التشيليون ذوو البذلات والمظلات الداكنة الألوان، والنساء المرتديات أحدث الأزياء القادمة من أوروبا، والأطفال في عرباتهم اللابسين ثياباً على هيئة الأرانب، أمور زالت كلها مع الرياح المنعشة لفرقة « البيتلز » . أمور كانت قبل « الوحدة الشعبية.» . حدث توجه جديد في الأزياء تداخلت فيه الأجناس . قامت النساء بقص



شعورهن حتى فروة الرأس تقريباً وارتدين السراويل الضيِّقة من فوق والواسعة عند القدمين ، بينما أخذ الرجال يطيلون شعرهم . كل هذا تم تجاوزه أيضاً بسبب احتشام الحكم الديكتاتوري المتطرف المتعصب . كان على جيل كامل أن يكون حليق الرأس إذا أراد أن لا يقطع إرباً بحراب دوريات الجيش كما حدث مراراً في الأيام الأولى للانقلاب .

لم أدرك حتى ذلك اليوم مدى تغير الناس على جسور موبوشو . فقد حل في المدينة الجيل الذي تلاجيلي، الأولاد الذين كانوا في العاشرة من عمرهم عندما غادرتها أنا ، والذين بالكاد عرفوا حجم الكارثة أصبحوا الآن في الثانية والعشرين من العمر . أولاد المدرسة الابتدائية في عهد سلفادور أليندي صاروا الآن قادة المقاومة . بدا هذا الأمر اكتشافاً مثيراً بالنسبة لي ولكنه كان في الوقت نفسه أمراً مزعجاً : الآن ولأول مرة أخذت أتساءل إذا كانت ثمرة هذا الحنين إلى الوطن تستحق العناء ؟ .

هذا الشك أمدني بدفعة جديدة من العزم . ولكي أكمل برنامج اليوم قمت بجولة سريعة في تلة سان كريستوبال ثم في كنيسة سان فرنسيسكو التي كانت حجارتها تتلألأ كالذهب تحت أشعة شمس ما بعد الظهر . ثم طلبت إلى فرانكي أن يجلب حقيبة سفري من الفندق ويأتي لاصطحابي بعد ثلاث ساعات من دار سينما ركس حيث ذهبت لأشاهد فيلم « أمادوس » . طلبت منه أيضاً أن يخبر إيلينا أننا سنغيب ثلاثة أيام . كان هذا كل شيء . وهذا يعني خرقاً للعرف المتفق عليه والقاضي بأن تعرف إيلينا باستمرار مكان وجودي . ولكنني كنت مضطراً للإقدام على ما أقدمت عليه .



انطلقت أنا وفرانكي في قطار الحادية عشرة تلك الليلة إلى « كونسبسيون » لقضاء الوقت اللازم للمهمة .



يحرق نفسه أمام الكاتدرائية

قررنا القيام بهذه الرحلة ، وكانت الفكرة بنت لحظتها ولكن ثبت أنها كانت صائبة . بدا لي أن القطار أفضل وسيلة للتنقل داخل التشيلي حيث لا رقابة على الهوية من النوع الذي في المطارات وعلى الطرق العامة الرئيسية ، ولأنه يمكن الإفادة من الليل الذي يجعله حظر التجول وقتاً ميتاً للسفر . لم يكن فرانكي يشاطرني الرأي بالنسبة لسلامة السفر في القطارات لأنه يعتبر أنها أكثر وسائل النقل تشدداً في المراقبة . بينت له أنه لهذا السبب بالضبط هي الأكثر أماناً ، إذ لن يخطر ببال رجل شرطة أن شخصاً متنكراً قد يستقل قطاراً معرضاً نفسه لمخاطر الرقابة المتشددة . أجاب فرانكي أن الشرطة تعرف أن المقاومين السريين يسافرون في القطار لأنهم يعتقدون أنه كلما كانت وسيلة النقل جيدة المراقبة كانت أكثر أماناً . وأضاف كذلك أن رجل إعلانات ثرياً وذا خبرة واسعة ويرتبط بعلاقات أعمال مهمة في أوروبا يتنقّل بالقطارات الفخمة وليس بالفقيرة منها داخل التشيلي . ومع ذلك أقنعته في النهاية بحجة أن الطائرة ليست أفضل وسيلة للانتقال إلى « كونسبسيون » إذا أردنا التقيد بالبرنامج المعد إذ من المستحيل أن نعرف متى يسمح لنا الضباب بالهبوط . ولكي أكون صادقاً فقد كنت أفضل القطار على أي حال ، بسبب خوفي غير القابل للشفاء من الطيران .

استقلينا قطار الساعة الحادية عشرة من المحطة المركزية الحديدية البناء ذات الجمال الشبيه بجمال برج إيفل الذي لا يوصف . اخترنا مقصورة نظيفة ومريحة في البولمان (١) . كنت جائعاً ، سبق وتناولت قطعتين من الشوكولا كوجبة في دار السينما

---

(١) البولمان : حافلة ذات سرائر أو حجرات صغيرة ينام فيها الركاب (ملاحظة المترجم) .



لحظة كان الشاب موزارت يقدم عروضاً بهلوانية أمام أمبراطور النمسا ولم أتناول شيئاً بعد ذلك . قاطع التذاكر أعلمنا أن هناك عربة لتناول الطعام ولكن القانون يفصلها عن عربة البولمان ، وأضاف أنه بإمكاننا الذهاب إلى عربة الطعام قبل أن ينطلق القطار نأكل ما نريد ثم نرجع إلى عربتنا عند توقف القطار في محطة رانكاغوا بعد ساعة . ركضنا بأسرع ما يمكن لأن حظر التجول كان قد بدأ . وكان قاطعو التذاكر يستعجلوننا صارخين : « اسرعوا، أيها السادة ، اسرعوا ، إننا نخالف القانون » . في محطة رانكاغو بدا الحراس وقد غلبهم النعاس نصف مجمدين غير عابئين بخرق القوانين العسكرية الصارمة .

كانت محطة خاوية وباردة جداً ، مهجورة يلفها ضباب يوحي بوجود أشباح . بدت كمحطات القطار في الأفلام السينمائية التي تصور أرصفة الترحيل الإجباري في ألمانيا النازية . فجأة وبينما كان قاطعو التذاكر يستعجلوننا ظهر نادل في ثوبه الأبيض الكلاسيكي يركض كالأرنب البري يحمل صحناً من الأرز وعليه بيضة مقلية يوازنه على باطن كفه . سار أمامنا خمسين ياردة بسرعة كبيرة والصحن متوازن بشكل سحري . ناوله لأحد الأشخاص من نافذة العربة الأخيرة وقفل عائداً متسلقاً بجهد عربة الغداء قبل أن نصل نحن إلى عربتنا البولمان .

قطعنا الثلاثمائة ميل إلى « كونسبسيون » بصمت مطبق . حتى لكأن حظر التجول لم يفرض على ركاب القطار المسرنم [1] وحسب بل وعلى كل مخلوقات الطبيعة . كنت بين الفينة والأخرى ألقي نظرة من النافذة فلا أتبين من خلال الضباب سوى محطات خاوية ،

---

(١) المسرنم : الذي يمشي وهو نائم (ملاحظة المترجم) .



حقول خاوية ، الليل الخاوي الواسع لريف غير مأهـول . الدليـل الـوحيد على وجـود الإنسـان في تلك الأرض كـان ذلـك الحـاجـز اللامتناهي من الأسلاك الشائكة الممتدة على طول الجهة اليمنى من الخط الحـديـدي ولا شيء وراءهـا : لا بشـر ، لا أزهـار ، لا حيوانات . . . لا شيء . تذكرت بابلو نيرودا الشاعر : خبز ، أرز ، تفاح في كل مكـان . أما في التشيلي فـأسلاك ، أسـلاك ، أسلاك شـائكة . في السابعة صبـاحاً لا يـزال أمـامنـا الكثيـر من الأراضي المتـرامية فيهـا الأسلاك الشـائكة قبـل أن تبلغ نهايتهـا وصلنـا إلى كونسبسيون .

قبل أن نقرر ما علينا القيام به رأينا أن البحث عن مكان للحلاقة فكرة جيدة . هذا مع العلم أنني كنت ألتمس أي عذر لأطيل لحيتي ثـانية . ولكن لسـوء الحظ لأننـا سنبـدو « للكـاربـيينيـرو » مجـرمين متهـورين في تلك المدينـة المعروفـة لدى كـل التشليين بأنهـا مهد البركان الاجتماعي ومقر نضالات البلد العظمى . فيها ظهرت حركة الطلاب في السبعينات ، وفيها حصل سلفادور الييندي على الدعم الكافي لانتخابه ، وهناك ارتكب الرئيس غابرييل غـونزاليـز فيديـلا التنكيـل الـوحشي عـام ١٩٤٦ قبـل أن يقيم معسكـر « بيـاغـوا » للمعتقلين السياسيين ، وهناك أيضاً تلقى الضابط الشـاب أوغوستـو بينـوتشه تـدريباتـه في ذلك المعسكـر المشين على فنون الإرهـاب والموت .

أزهار أزلية في بلازا سيباستيان أسيفيدو

عندما اقتربت بنا السيارة من وسط المدينة استطعنا أن نرى عبر ضباب جليدي كثيف الصليب اليتيم في ساحة الكنيسة وباقة الزهـر



التي لا تـذبل التي يـأتـي بها دائمـاً أصدقـاء مجهولـون . سبستيان أسيفيدو ، عامل منجم أضرم النار بنفسه في تلك البقعة منذ سنتين إثر جهود ضائعة للعثور عمن يشفع له في المركز الوطني للأعلام من أجل إيقاف تعذيب ابنه البالغ من العمر الثانية والعشرين وابنته التي في العشـرين واللذين تم توقيفهمـا لحيازتهمـا السلاح بشكـل غيـر مشروع .

سبستيان أسيفيدو لم يطلب التماساً ولكنه حذَّر رئيس الأساقفة كان غائباً في رحلة ولذا تكلم سبستيان إلى الموظفين في الأبرشية ، وإلى مراسلي الصحف الرئيسية ، وإلى رؤساء الأحزاب السياسية ، وإلى قادة العمل والصنـاعة ، وإلى أي شخص يمكن أن يسمـع ، حتى إلى موظفي الدولة قائلاً الكلام ذاته لكل منهم : « إذا لم تقوموا بعمل ما لإيقاف تعذيب ولدي فسأصب الكاز على نفسي وأحرقهـا في ساحة الكنيسة » . لم يصدقه البعض والبعض الآخر لم يعـرف مـاذا يفعل . وهكـذا وقف سبستيان في السـاحة في الـوقت الـذي حـدده ، وأفرغ دلـواً من الكاز على جسـده ، وحذر الحشـد الذي تجمع في الشارع من أنه سيضرم النـار بنفسه على الفـور إن حاول أحــدهم اجتيـاز الخط الأصفــر . وفي محــاولــة لأحــد رجــال « الكاربينيرو » من أجل إيقاف هذا القربان ، اجتاز الخط ، وهكذا تحول سبستيان شعلة بشرية .

عاش سبستيان بعد ذلك سبع ساعات مضيئاً مشرقاً ، غير شاعر بألـم ، ردة الفعل كانت كبيرة إلى حد وجدت الشرطة نفسها مضطرة للسماح لابنته بـأن تزوره في المستشفى قبـل موتـه . ولكن الأطباء فضلوا أن لا تراه ابنته في الحال المخيفة التي هو عليها . سمحوا لها أن تكلمــه فقط عبــر خط اتصــال داخلي . كيف أعــرف أنــك



كانديلاريا ؟ سألها سبستيان اسيفيدو عندما سمع صوتها . لفظت له الاسم الذي كان يطلقه عليها من قبيل الدلال وهي صغيرة . وهكذا أطلق سراح الأخ وأخته من غرف التعذيب كما طلب الأب الشهيد عندما ضحى بحياته لأجلهما وحولا للمحاكم القضائية العادية . منذ ذلك أطلق سكان مدينة كونسبسيون اسماً سرياً على ساحة التضحية هذه : ساحة سبستيان اسيفيدو العامة .

ليس سهلاً أن تحلق ذقنك في كونسبسيون

أن تظهر في ذلك الحصن التاريخي وفي الساعة السابعة صباحاً متنكراً كرجل أعمال أجنبي وغير حليق الذقن ففي ذلك الكثير من المخاطرة . فالكل يعرف أن رجال الأعمال يحملون في حقائب يدهم إضافة إلى آلة الطباعة الصغيرة التي يستخدمونها لتدوين آرائهم ماكينة حلاقة تعمل على البطارية لاستخدامها في الطائرة أو في القطار أو في السيارة قبل ظهورهم في اجتماعات عمل . ومع ذلك ربما لم يكن البحث عمن يستطيع أن يحلق ذقني حلاقة جيدة في الساعة السابعة من صباح يوم سبت مخاطرة كبيرة . حاولت ذلك أولاً عند محل حلاقة قرب ساحة أرماز يفتح في هذه الساعة . على الباب عبارة تقول : « للجنسين » ، يونيسكس . امرأة شابة في حوالي العشرين من عمرها تكنس الأرض ، ورجل شاب في العمر ذاته يرتب القناني على الرف .

قلت : أريد أن أحلق ذقني .

- نحن لا نقوم بذلك هنا ، أجاب الرجل .

- وأين يقومون بذلك ؟

- جرب ، في مكان أبعد ، صعوداً من هنا ، هناك الكثير من



صالونات الحلاقة .

مشيت مسافة حي واحد من المكان حيث كان فرانكي قد توقف ليستأجر سيارة . وجدته مع اثنين من الكاريبينيرو يعرف عن نفسه . سألوني عن أوراقي أنا أيضاً . لم تكن هناك مشكلة ، على العكس ، وبينما كان فرانكي يدبر أمر السيارة ، قادني أحدهم إلى صالون حلاقة فتح حديثاً ثم قال إلى اللقاء بعد أن صافحني .

كان يحمل العنوان نفسه ، اليونيسكس : للجنسين . وكالصالون السابق فيه امرأة في الخامسة والثلاثين ورجل شاب سألني عما أريد ، قلت أرغب في حلاقة ذقني . نظر إلي الاثنان بتعجب :

ـ كلا يا سيدي ليس لدينا خدمة كهذه هنا . . . قال الرجل .

ـ نحن للجنسين . . . قالت الفتاة .

ـ حسناً . قلت وإن كنتما « يونيسكس » فأنتم تستطيعان مع ذلك حلق ذقن رجل يحتاج إلى ذلك . . أفلا تستطيعان ؟

ـ كلا يا سيدي أجاب الرجل « ليس هنا » ، ثم أدارا ظهرهما لي . وبقيت أجول في الشوارع المهجورة وسط الضباب الضاغط . فوجئت بكثرة صالونات الحلاقة للجنسين في كونسبسيون ، وبتماثل موقفها : رفضها حلاقة ذقني . كنت أسير تائهاً في الضباب عندما سألني صبي يمر في الشارع : هل تبحث عن شيء أيها السيد ؟

ـ نعم ، أجبته « أريد صالون حلاقة للرجال فقط وليس للجنسين ، صالون حلاقة كالذي كان قبلًا » . أرشدني إلى صالون حلاقة بأسطوانته الحلزونية الملونة بالأحمر والأبيض على مدخله والكراسي الدوارة على الطراز القديم . حلاقان متقدمان في السن ، يرتديان مئزرين متسخين يهتمان بالزبون اليتيم عندهما ، أحدهم



يقص له شعره والآخر ينفض ما تطاير من الشعر على وجهه وكتفيه . تفوح من المكان رائحة مرهم خاص ورائحة الكحول المشبعة بروح النعناع ، ورائحة مستودع الأيام القديمة . لم أنتبه قبل ذلك أن هذه الرائحة هي ما افتقدته في الصالونات الأخرى ، رائحة أيام الصبا .

« أريد حلاقة » قلت . نظر إلي كل من الحلاقين والزبون بتعجب . سألني العجوز الذي يحمل المنفضة السؤال الذي كان ولا شك يدور في خلد الثلاثة معاً : من أين أنت؟ وبشكل آلي أجبت « من تشيلي » وصحت بسرعة مضيفاً : « ولكني أرغوائي » .

لم يلحظ أي منهم أن الاستدراك كان أكثر رداءة من الخطأ الذي ارتكبته ، ولكن من خلال ردة فعلهم أيقنت أن كلمة « رازيرار » التي استعملتها بدل كلمة يحلق « توشيف » لم تعد شائعة في تشيلي منذ مدة . إذ قد حل مكانها الكلمة الأكثر استعمالاً (التنعيم : أفيتار) . الشبان في صالونات اليونيسكس هم أيضاً لم يفهموا اختياري للكلمات غير المستعملة . في هذا المكان على العكس غمرت البهجة الجميع لقدوم رجل يتكلم اللغة السائدة في أيامهم الماضية والأفضل . أجلسني الحلاق الذي لم يكن مشغولاً على كرسيه . لف ملاءة حول رقبتي بطريقة مألوفة . أحضر ماكينة حلاقة مثلمة . يبلغ السبعين من العمر على الأقل . بدا عليه وكأن أياً من هذه السنين لم تكن سهلة . كان طويلاً ومترهلاً ، شعره شديد البياض ، وجهه نفسه مغطى بشعر لحية عمره ثلاثة أيام .

سألني : هل تريد حلاقة بماء ساخن أو بارد ؟

بالكاد كان قادراً على حمل ماكنة الحلاقة بيده المرتجفة .

ـ ماء ساخن بالطبع .



ـ في هذه الحالة نحن نواجه مشكلة . أجاب ، ليس لدينا ماء ساخن . هنا مياه عادية باردة فقط . قفلت إلى صالون الحلاقة الأول المخصص للجنسين ، تـوجهت بنفس السؤال مستخدمـاً كلمـة « تنعيم » بدل « حلاقة » . بدأوا بخدمتي على الفور شريطة أن أقص شعري أيضاً . عندما وافقت على ذلك تخلى الزوجان الشابان عن لامبالاتهما وبدآ بطقوس مطولة . لفت أولاً منشفة حول عنقي وغسلت شعري بالشامبو وبماء بارد ، لم يكن هناك أيضاً ماء ساخن . ثم سألتني بأي معجون تجميلي للوجه أريد تركيبة رقم ثلاثة أم أربعة أم خمسة . بعد ذلك اقترحا علاجاً للشعر المتساقط . تركتهما يقومان بكل ذلك إلى أن توقفت فجأة أثناء قيامها بتنشيف وجهي وقالت وكأنها تخاطب نفسها : كم هو غريب ؟ جفلت وفتحت عيني وسألت : ماذا ؟ بدا عليها الارتباك أكثر مني ولكن لا بد أن تجيب . قالت : « إن حاجبيك متوفان » . غير مبتهج بهذا الاكتشاف قررت أن أقوم بأبشع مزحة أستطيع القيام بها . رميتها بنظرة واهنة وقلت : « ولم لا ؟ هل أنت معادية للواطيين ؟ » . خجلت حتى أعماقها وهزت رأسها .

جاء دور قص الشعر . وعلى الرغم من تعليماتي المفصلة قص شعري أكثر مما يجب وتم تسريحه بشكل مختلف وانتهى بأن أعادني إلى ميغل ليتين . بدا هذا منطقياً لأن خبيرة الماكياج في باريس تعمدت عن قصد معارضة التوجه الطبيعي لشعري ، وكل ما فعله حلاق كونسبسيون هو إعادة الأمور إلى نصابها ، إذ من الأسهل تسريح شعري على نسقه الطبيعي وهذا ما حدث بالفعل . ومع ذلك فقد احتجت إلى إرادة قوية كي أقاوم رغبتي في أن أكون ذاتي ثانية في هذه المدينة الضبابية البعيدة حيث لم يتعرف علي أحد على كل



حال . بعد الانتهاء من قص الشعر قادتني المرأة الشابة إلى مؤخرة لصالون وكأنها تقوم بعمل غير محتشم . وضعت ماكنة حلاقة في زر لكهرباء أمام مرآة وناولتني إياها لأستعملها . لحسن الحظ لم يكن مناك حاجة للماء الساخن .

جنة حب في الجحيم

رتب فرانكي قضية استئجار السيارة . كان فطورنا فنجان قهوة بارد في دكان لبيع المرطبات إذ أن الماء الساخن غير متوفر أيضاً . تجهنا ناحية مناجم الفحم « لوتا » و « شواجير » عبر الجسر العظيم فوق نهر التشيلي الأكبر « بيو - بيو » والذي كانت مياهه الناعسة ذات اللون المعدني بالكاد ترى خلال الضباب . إن وصفاً مسهباً لتلك المناجم ولحياة العاملين فيها كتبه في القرن الماضي كاتب من تشيلي يدعى بالدوميرو ليلّو لا يزال صالحاً حتى اليوم . أن تكون في منطقة المناجم فكأنك في الويلز منذ مئة سنة ، هذا بالنسبة للضباب لمشبع بالسخام وبالنسبة لظروف العمل التي ما زالت تتقدم زمنياً على الثورة الصناعية .

كان علينا أن نجتاز ثلاثة مراكز تفتيش قبل أن نصل إلى هناك . لأول هو الأكثر صعوبة كما كنا نعرف ذلك سلفاً . وهكذا وعندما سألنا الحراس عن الهدف من زيارة لوتا وشواجير استعملنا كل براعتنا الكلامية حتى عجبت أنا نفسي من القوة البلاغية لإجابتي . قلت إن هدف زيارتنا هو أن نرى بأم العين البارك المشهور بأنه الأكثر جمالاً في أميركا بشجر الأروكارية العتيق الضخم والتمتع بالمشهد لرائع لتماثيلها المحاطة بطواويس سوء الطالع والثم [1] بأعناقها

(1) الثم : نوع من الأوز .



السوداء . وشرحت لهم خططنا للإفادة من البارك كأساس لفيلم إعلاني سيعرض في العالم أجمع لنشر اسم « اروكاريا » عطر جديد يحمل هذا الاسم تيمناً بهذه البقعة المقتطعة من الفردوس .

إن أي شرطي تشيلي واع لا يستطيع الاعتراض على إيضاح بهذا الطول لا سيما إذا كان مطعماً بهذا المديح المفرط لجمال بلاده . لذا فقد رحبوا بنا ويبدو أنهم أطلعوا نقطة التفتيش الثانية على قدومنا ، إذ أننا لم نسأل عن أوراقنا ولكن السيارة والحقائب فتشت من جديد . لم يبالوا سوى بآلة التصوير السينمائي « السوبر ٨ » مع أنها لم تكن نموذجاً لتصوير احترافي . فالتصوير في المناجم يتطلب إذناً خاصاً . أوضحنا لهم أننا لن نتعدى البارك ذات التماثيل والأوز على قمة الجبل . حاولت إنهاء الحديث بإظهار ازدراء فيه الكثير من « السنوبيسم » فقلت :

ـ « نحن غير مهتمين برؤية الفقراء » .

متفحصاً كل غرض بإمعان أشار أحد الكارابينيرو دون أن يلتفت إلي قائلاً : « كل إنسان فقير في هذا المكان » .

اكتفوا بنتائج التفتيش . بعد نصف ساعة مررنا على نقطة التفتيش الثالثة في نهاية إفريز ضيق شديد الانحدار . وصلنا إلى الحديقة العامة . مكان غريب عجيب بناه الدون ماتياس كوزينو ، تاجر خمر مشهور للمرأة التي أحب . جمع أشجاراً رائعة من كل أنحاء التشيلي لإسعادها . قام بإحضار حيوانات ميثولوجية خرافية وتماثيل لآلهة تمثل الحالات الروحية : الفرح والحزن والحنين إلى الوطن والحب . وشيَّد في الخلف قصراً يشبه تلك القصور التي يرد وصفها في قصص الجن . من على شرفاته تستطيع أن تطل على



الجهة الأخرى من العالم عبر المحيط الهادىء .

أمضينا النهار بكامله هناك نصور بآلة السوبر ٨ الأمكنة التي سيقوم بتصويرها الفريق السينمائي بعد حصوله على الإذن العام . لم تكد نلتقط الصور الأولى حتى أقبل علينا حارس يخبرنا أن أي نوع من التصوير ممنوع هنا . أعدنا على مسمعه قصة الفيلم الدعائي الذي سيعرض في العالم ، ولكنه أصر على تنفيذ الأوامر . عرض علينا مرافقته إلى المناجم في الأسفل ليسأل رؤساءه الإذن بالتصوير فقلت له : « لن نصور بعد الآن وإن شئت تستطيع المجيء معنا لتتأكد من ذلك » وافق على ذلك . جلنا الحديقة ثانية برفقته . كان شاباً حزين الوجه ، استمر فرانكي يحادثه ، وفضلت أنا السكوت على التحدث بلهجتي الآرغوائية الرديئة إلا ما دعت الحاجة للكلام . عندما أراد الشاب التدخين أعطيناه كل ما لدينا من سجائر . عندها تركنا وحدنا ورحنا نصور ما رأينا فيه فائدة . ليس فقط في الحديقة فوق وإنما تحت خارج المناجم أيضاً . حددنا الأمكنة التي ستوضع فيها الماكينات في المواضع التي أثارت اهتمامي ، الزوايا ، العدسات ، المسافات ، المنظر العام الواسع للحديقة ثم البؤس حيث تتطابق حياة عمال المناجم مع حياة الصيادين . كان مكاناً مانوياً ثنوياً . وعلى الرغم من أنه حقيقة فإن العقل عاجز عن تصوره .

بار تنام فيه طيور النورس

اتجهنا نزولاً في وقت متأخر من بعد الظهر . مراكب تقوم برحلات يومية إلى جزيرة سانتا ماريا القريبة تمخر عباب بحر رهيب



في أمواج سوداء هائلة . تنقل عائلات بكاملها محملة بآلات قديمة وأملاك خاصة وحيوانات للأكل . عمال المناجم في أنفاق عميقة تحت سطح المحيط حيث يعمل الآلاف في ظروف رهيبة . في الخارج مئات من الرجال والنساء والأطفال يحفرون كالخلد بأظافرهم في الأرض حول مداخل المنجم بحثاً عن بقايا مما ينتجه المنجم . الهواء في الحديقة فوق غني بالأوكسجين ، تمده به الأشجار ، نقي وصاف . في الأسفل يتنشق عمال المناجم الهواء في غيوم من غبار الفحم التي تحترق أثناء دخولها وتستقر في الرئتين . يبدو البحر في الأعلى ذا جمال يفوق الوصف أما في الأسفل فهو مضطرب وصاخب .

هنا كانت واحدة من أبرز قلاع سلفادور أليندي . هنا نظمت « مسيرة الفحم » كما عرفت يومذاك عام ١٩٥٨ . فقد عبر عمال المناجم الجسر فوق « بيو - بيو » كجمهور أسود صامت . دخلوا مدينة كونسبسيون يرفعون الأعلام واليافطات مصممين على القتال . هذا الأمر صعق الحكومة ، هذه الحادثة سجلها سرجيو برافو في فيلمه « بونديراس دل بيبلو » (أعلام الشعب) واحد من أكثر الأفلام الوثائقية تأثيراً على الإطلاق . أليندي كان في هذه المسيرة . وأعتقد أنه هنا نال الدليل القاطع على دعم الشعب له . فميا بعد وفي إحدى جولاته الأولى كرئيس ذهب ليحدث ويسمع عمال المناجم في ساحة لوتا . وكنت أنا من أنصاره ، فوجئت عندما سمعت رجلاً مثله كثير الاعتداد بحيويته وشبابه وهو في الستين يقول كلاماً في ذلك اليوم وكأنه ينبعث من أعماقه : « أنا لم أعد شاباً ، أنا عملياً رجل متقدم في السن الآن » . عمال المناجم بذبولهم ووجوههم الحديدية المتحجرة التي زادها قسوة وعود سنوات لم



تتحقق فتحوا له قلوبهم وأيدوا نضاله السياسي . وكما وعدهم عصر ذلك اليوم في لوتا وشواجير فإن أول إجراء قام به كرئيس للبلاد هو تأميم المناجم . أما أول إجراء اتخذه بينوتشه فهو إعادة المناجم إلى القطاع الخاص ، وهو ما فعله بكل شيء تقريباً ! المدافن ، سكك الحديد ، الموانىء وحتى جمع النفايات .

عندما انتهينا من التصوير في المناجم دون أية مضايقات لا من الجنود ولا من السلطات المدنية في حوالي الساعة الرابعة رجعنا إلى كونسبسيون عبر طريق « تالكاهوانو » نشق طريقنا وسط جمهور كثيف متراص من عمال المناجم العائدين إلى منازلهم عبر الضباب يجرون عربات محملة بقطع الفحم السميكة المستخرجة من المنجم . رجال كالأشباح ، صغار الأجسام ، نساء نحيفات ولكن قويّات يحملن أكياساً كبيرة من الفحم . بَدوا كمخلوقات في كابوس ، يظهرون فجأة من الشفق بالكاد تبصرهم ، بالكاد يرون تحت الأضواء الأمامية للسيارات .

« تالكاهوانو » الدوائر الرسمية للمدرسة الحربية لصغار الضباط ، أهم مرفأ عسكري ومسفن في التشيلي . تنبعث من هوائها رائحة السمك من مصانع تعليب السمك والقار من المسفن وعفن البحر . في الأيام التي تلت الانقلاب كان لها الامتياز بأن تكون نقطة ترحيل السجناء الذين اقتيدوا إلى جحيم جزيرة « داوسن » . في الشوارع اختلط طلاب الكلية الحربية ببزاتهم الأنيقة بحشد عمال المناجم الذين يلبسون الأسمال .

وخلافاً لما كنا نظن فإن الجيش لم يفتش المسافرين ، معظم البيوت كانت معتمة ، والأضواء القليلة التي بدت من النوافذ كانت



تنبعث من مصابيح على الزيت .

لم نأكل شيئاً منذ الصباح عندما تناولنا القهوة البـاردة . وهكذا فقد بدا لنا منظر مطعم بأنواره الساطعة كرؤيا في حلم ، بل وأكثر من ذلك عندما وجدناه مليئاً بطيور النـورس التي كانت تـأتي من البحر فوق التلال. لم أر في حياتي كماً بوفرتها، ولم أرها قط من قبل تتدفق من العتمة وتنقض فوق الزبائن الفاقدي الحس تطير وكـأنها عميـاء مصعوقة تشق طريقها بجلبة صاخبـة كزمـرة من القراصنـة السكارى الذين يعيشون في سفينة . تناولنـا فطورنـا وقت العشاء من المحـار التشيلي الأصيـل . له مـذاق المياه العميقـة المثلجة ثم عـدنا إلى كونسبسيون . وجدنا مكتب تأجير السيـارات قد أقفـل . أضعنا مـا يقارب الأربع ساعات محاولين إيجاد شخص يمكنه استلام السيارة منا . قطار سانتياغو على أهبة الرحيل . تسللنا إليه .




مكتبة
الفكر الجديد

ميتان خالدان أبداً : أليندي ونيرودا



« البوبلاسيونيس » متاهات وأزقة الفقر في مدن تشيلي الكبرى هي إلى حد ما مناطق حرة كالقصبة في المدن العربية . أبدع ساكنوها ثقافة تدميرية . يتردد الجيش والشرطة قبل دخول هذه الأماكن المزدحمة حيث يمكن ألا يعثر لفيل فيها على أثر . هذه الأحياء الشعبية كانت مصدر إزعاج للدولة ، وحتى خلال العهود الديمقراطية في تشيلي فإن التراث التاريخي حوَّل البوبلاسيونيس إلى مراكز مؤيدة للاضطراب السياسي . مهمتنا كانت أن نلتقط بأسلوب السينما الوثائقية ماذا يفكر الفقراء حول النظام الديكتاتوري وإلى أي حد تعيش ذكرى سلفادور الييندي بينهم .

لقد فوجئنا بأن أسماء الشخصيات القيادية الرائدة للمقاومة والذين هم في المنفى لا تعني سوى القليل للجيل الجديد الذي يعادي النظام الديكتاتوري . إنهم يعتبرونهم أبطالاً لماض مجيد ليس له كبير علاقة بالحاضر . ومع أن الأمر يبدو خلاف ذلك ففي هذه النقطة يكمن الفشل الذريع للنظام . إذ في بداية عهده صرح الجنرال بينوتشه أنه سيستمر في السلطة حتى يمحو آخر أثر للنظام الديمقراطي من ذاكرة الجيل الجديد . ولم يخطر بباله أن عهده هو الذي سيمحى بدلاً من ذلك . ومنذ مدة غير بعيدة ، وقد أسخطه جرأة الشباب الذين قاوموا رجال البوليس بدون أي سلاح سوى الحجارة بهدف إعادة نظام لم يعرفوه ، صرح الجنرال بينوتشه أن الجيل الأصغر يقاتل ضده لا لسبب سوى أنه لا يدرك كيف كانت الديمقراطية في التشيلي .

بقي الماضي حياً تحت اسم سلفادور الييندي ، فالإعجاب الذي يقارب العبادة نما حول ذكراه ووصل إلى حد الأسطورة في البوبلاسيونيس . كنا بالحقيقة نود أن نكتشف الحالات المعيشية



لهؤلاء النـاس وردة فعلهم إزاء الحكم الـديكتـاتـوري وأسـاليب مقاومتهم . كانت الأجوبة على أسئلتنا دوماً عفوية وصريحة وكانت دائماً ملتصقة بذكرى أليبندي . الشهادات العديدة له ظهرت وكأنها واحدة « لقد انتخبته دائماً ولم أنتخب خصمه مطلقاً » . لقد رشـح أليبندي نفسه للرئاسة عدة مرات ولذا كان يقول إن شاهـد ضريحـه سيحمـل العبـارة : « هنـا يـرقـد سلفـادور أليبنـدي رئيس تشيلي القادم » . وخلال سنوات حياته البرلمانية الطويلة كان مرشح معظم الأقاليم من حدود البيرو إلى باتاغونيا . ومع أنه كان نائباً وسينـاتورا فقد احتاج إلى أربع حملات انتخابية قاسية قبل أن يتمكن من الفوز أخيراً بمنصب الرئـاسة . وبـالتالي لم يعـرف كل شيء عن البـلاد وشعبها وعاداتها وخيبات آمالها وأحلامها فحسب ، بل كان هو نفسه معروفاً شخصه من قبل كل السكان . لم يكن كغيره من السياسيين الكثر الذين يعرفون من خلال الصحف والتلفزيون والإذاعة بل كان يقود حملته الانتخابية في الوطن باتصـال حميم مع النـاس كطبيب العائلة وكان هو فعلاً كـذلك . ميله الغـريزي لفن السيـاسة استثـار مشاعر متناقضة حتى لدى مؤيديه . في أحد الأيام وكان قـد أصبح رئيساً ، استعرض أمـامه رجـل في تمثيلية كـان يحمل لافتـة عليها رسالة غير عادية : « هذه حكـومة تـافهة ولكنهـا حكومتي » فـوقف اليبندي ، صفق له ثم نزل لمصافحته .

خلال رحلاتنـا الطويلة في البلد لم نعثـر على مكان واحـد لم يترك فيه شيئاً من نفسه . هناك دائماً رجل صافحه أو كان عراباً لابنه أو شفاه من سعال مستعص بشـاي من أوراق نبتة في حـديقة منـزله الخاصة ، أو شخص حصل له على وظيفة أو آخر ربح عليه بلعبـة الشطرنج . أي شيء لمسه احتفظوا به كحرز . آخر ما كنت أتوقعه



هو عرض كرسي أمامي ، أكثر جدة من سواه ثم قيل لي : « لقد جلس عليه مرة » . أراني أحد الأشخاص تمثالاً صغيراً وقال : « لقد أعطانا هذا » . قالت لي امرأة شابة معها طفل وفي بطنها آخر : إنني دوماً أعلم ابني كيف كان الرئيس مع أنني بالكاد عرفته لأنني كنت في التاسعة عندما رحل » . سألناها ماذا تذكر عنه فقالت : كنت مع والدي عندما رأيته يتحدث من على شرفة ملوحاً بمنديل أبيض » .

في أحد البيوت كانت صورة عذراء الكرميلين معلقة على الحائط . سألنا صاحبتها إن كانت من مناصري أليندي ، أجابت بسرعة : « لا تقولوا كنت فأنا لا أزال كذلك ! » ، ثم أزاحت صورة العذراء فإذا وراءها صورة لاليندي .

إبان رئاسته كانت تباع في الأسواق الشعبية تماثيل نصفية للرئيس . الآن يضعون قرابين زهر وقناديل نذور أمام هذه الذخر في بيوتهم . ذكراه ما زالت حية في نفوس كبار السن الذين انتخبوه أربع مرات والذين انتخبوه ثلاث مرات وفي نفوس الأولاد الذين يعرفونه من خلال الحكايا . نساء عديدات أجرينا معهن مقابلات قلن لنا : سلفادور الليندي الرئيس الوحيد الذي تحدث عن حقوق المرأة .

نادراً ما استعملوا اسمه ، يكتفون « بالرئيس » وكأنه لا يزال هو الرئيس أو كأنه الرئيس الوحيد وهم ينتظرون عودته فقط . أكثر من صورته فإن فلسفته الإنسانية مزروعة في ذاكرة البوبلاسيونيس ، ما نحن قلقون بشأنه ليس سقفاً يغطي رؤوسنا ولا طعاماً نأكله فليعيدوا لنا كرامتنا . كل ما نريده هو ما أخذوه منا ! » حرية القول حول كل ما يتعلق بحياتنا » .



ميتان لا يزالان على قيد الحياة :

إن تقديس أليندي يطالعك بشكل خاص في « فالباريزو » الميناء الصاخب حيث ولد أليندي وترعرع واكتملت شخصيته السياسية . هناك قرأ أول أعماله النظرية في بيت صانع أحذية ثائر على النظام ، وهناك شغف بالشطرنج شغف رافقه طوال حياته . جده رامون أليندي أقام أول مدرسة غير دينية في تشيلي وأسس نزلها الماسوني الأول حيث توصل سلفادور أليندي إلى أعظم رتبه : سيد كبير ، باكورة نشاطه السياسي جاءت خلال « الأيام الاشتراكية الاثنتا عشرة » التي نظمها « مارمادوك غروف » شقيق زوج أخت أليندي .

والغريب أن النظام الديكتاتوري أوعز بدفنه في فالباريزو المكان الذي كان سيختاره هو نفسه لو قدر له ذلك دون أدنى ريب . تم ذلك دون إعلان أو تأبين ، نقل جثمانه إلى هناك ليلة الحادي عشر من أيلول سنة ١٩٧٣ لا يرافقه سوى زوجته هورتنزيا باسي وأخته لورا في طائرة حربية عتيقة ، تندفع الريح الجنوبية المثلجة إلى داخلها خلال شقوقها . أحد رجال المخابرات السابقين في الزمرة العسكرية ـ وكان قد دخل قصر المونيدا مع أوائل المهاجمين ـ صرح للصحافي الأميركي توماس هاوز أنه رأى جثة الرئيس « الرأس مفتوح وبقايا الدماغ قد تناثرت على الأرض والجدران » . وهذا ما يفسر لنا لماذا رفضوا السماح لزوجته برؤية الجثة عندما أصرت على رؤية وجهه وهو في الكفن وسمحوا لها فقط أن ترى شكلاً مغطى بملاءة . وقد تم دفنه في مدافن عائلة مارمادوك غروف في مقبرة سانت اينييس دون أية هبات سوى باقة من الزهر وضعتها زوجته وهي تقول : « سلفادور أليندي رئيس جمهورية التشيلي مدفون هنا » .



ظن جماعة الحكم الديكتاتوري أن باستطاعتهم إزاحة أليندي بإبعاده عن مظاهر التبجيل الشعبي ولكن ذلك لم يكن ممكناً . ومع أن الحكومة وصلت إلى حد نشر إشاعة بأن رفاته قد نقلت فإن الحجاج إلى قبره استمروا بالتوافد يومياً إلى هناك وهدايا الزهور يضعها مجهولون على الضريح .

تقديس بابلو نيرودا أيضاً ينمو باضطراد عند الجيل الجديد . المنزل السابقَ للشاعر على شاطىء « إيسلا نيغرا » غدا مزاراً بالنسبة لهم . وبالرغم من اسمها فإن هذا المكان الأسطوري ليس جزيرة ولا أسْوَد وإنما هو قرية صيد بممرات ذات قذارة صفراء على مسافة خمس وعشرين ميلاً جنوب فالباريزو قرب طريق سان أنطونيو العام .فمنزل بابلو نيرودا هناك هو قبلة أنظار العشاق من جميع أنحاء العالم . وبينما كان الفريق الإيطالي ينجز اللقطات الأخيرة في فالباريزو انتقلت أنا وفرانكي إلى هناك لوضع برنامج التصوير . الكاربينارو الذي يقوم بالخدمة هناك أرشدنا إلى مكان الجسر والفندق والأماكن الأخرى التي تغنى بها الشاعر في قصائده ولكنه حذرني من أن زيارة المنزل ممنوعة . وبينما كنا ننتظر وصول الآخرين في الفندق أحسسنا كيف كان الشاعر روح ايسلا نيغرا . عندما كان هنا كان المكان يمتلىء بالشبان يحملون ديوانه « عشرون قصيدة حب » كمرشد وحيد لهم . كل ما يريدونه هو رؤيته للحظة ، أن يسألوه عن مخطوطة كتبها ، أو قد يكتفون على الأغلب بأخذ ذكرى عن المكان . في تلك الأيام كان الفندق مكاناً فرحاً وصاخباً يظهر فيه نيرودا من وقت إلى آخر بعباءته الموشاة وقبعته الآندية مهيباً وبطيء الحركة كبابا روما . يأتي إلى هناك لاستعمال الهاتف إذ أنه قد ألغى هاتفه الخاص ليتجنب الإزعاج ، أو ليتحدث مع دونا إيلينا



صاحبة الفندق عن كيفية إعداد طبق من السمك لأصدقائه في اليوم ذاته في منزله . كان نيرودا خبيراً في إعداد ما لذّ من الطعام ، وهو يستطيع الطبخ كمحترف ، بل هو يتقن إعداد الطعام الجيد إلى درجة يهتم معها بأدق تفاصيل ترتيب الطاولة . هو يتقن إبدال شرشف الطاولة والصحون وأدوات تناول الطعام حتى تصبح متناسقة مع نوع الطعام المقدم . بعد اثنتي عشرة سنة كل هذا كنسته ريح موحشة . دونا إيلينا وقد غلبتها الذكريات المؤلمة غادرت إلى سانتياغو وأخذ الفندق يتراجع . قصاصة واحدة من الشعر استمرت : منذ الهزة الأرضية الأخيرة تستمر الأرتجاجات في ايسلا نيغرا كل عشر أو خمس عشرة دقيقة كل نهار وخلال الليل .

الأرض تهتز في إيسلا نيغرا

بدا لنا منزل نيرودا في ظلال شجرات الصنوبر التي تحرسه محاطاً بسياج يرتفع عدة أقدام كان الشاعر يحمي بواسطته حياته الخاصة . نمت الأزهار حوله في الغابة . رأينا لوحة تقول إن البيت مختوم بالشمع الأحمر من قبل الشرطة وإن الدخول ممنوع من أجل التصوير . الكارابينيرو الذي كان يمر بدورة ذات فواصل زمنية منتظمة بدا أكثر فظاظة وبلادة : « كل شيء محظور هنا » . ولما كنا قد تنبهنا لذلك مسبقاً فقد أحضر المصور الإيطالي معه آلة تصوير ضخمة تثير الانتباه لكي تسلم عند مركز الحراسة وجهاز تصوير صغير خبأه في ثيابه . وجاءت المجموعة كذلك في ثلاث سيارات لتستطيع إرسال لفّات التصوير حالما تصور إلى سانتياغو حتى إذا ضبطنا ونحن نصور فإننا نخسر الجزء من الشريط الذي نقوم بتصويره لحظة ضبطنا . وإذا حصل ذلك فعلى الفريق أن يتظاهر بعدم معرفتنا



ونصبح أنا وفرانكي سائحين بريئين .

أبواب المنزل مقفلة من الداخل والنوافذ مغطاة بستائر بيضاء والعلم الذي يرمز إلى وجود نيرودا غائب عن العمود . وسط أجواء الكآبة هذه فإن الحديقة قد أينعت بفضل عناية أناس مجهولين . قامت ماتيلد أرملة نيرودا التي قضت قبل وصولنا بفترة وجيزة بنقل الأثاث بعد الانقلاب وكذلك الكتب والمجموعات لكل شيء إنساني وسام والتي كان قد جمعها نيرودا في حياته المتجولة . بيوته في نواحٍ متعددة من العالم لم تكن تتميز ببساطتها وإنما بغرابتها ، عاطفته في التقاط الطبيعة ليست محددة بروائع قصائده . لقد كدس مجموعات من صدف البحر المجدول وتماثيل من مقدمات السفن وفراشات وحشرات من النوع الذي يظهر في الكوابيس المخيفة ، إضافة إلى الكؤوس والأقداح الغريبة . في أحد بيوته ربما وجد الزوار حصاناً واقفاً في وسط المكتب . حصان محنط ولكنه يبدو حياً . خطر له أن يغير هندسة بيوته . إحدى تجديداته المهمة فصل غرفة الجلوس عن غرفة الطعام وكان على المرء أن يسير مسافة خلال فناء الدار لينتقل من غرفة إلى أخرى كما عرف كيف يضع مظلات أنيقة يزود بها منازله أثناء الفصل الممطر . أصدقاء نيرودا الفنزويليون الذين ربطوا ذهنياً بين الذوق السيىء وسوء الطالع حذروه بأن مجموعاته ستعود عليه بالضرر . وبسرور جلي كان يجيب أن الشعر هو الترياق للحظ العاثر . إن مجموعاته المخيفة قد دلت على ذلك دون أدنى شك .

مقره الأساسي كان منزله على تلة كال ماركيز دي لابلاتا في سانتياغو حيث مات إثر الانقلاب ببضعة أيام إثر لوكيميا مزمنة تفاقمت بسبب الأسى . وقد نهب هذا المنزل من قبل جنود القوا



بكتبه إلى الحديقة وأضرموا فيها النار . بالمردود المادي لجائزة نوبل ابتاع نيرودا ما كان اسطبلاً لقلعة في النورماندي وحوّله إلى منزل يقع على حافة بحيرة غنية بأزهار اللوتس ، له سقوف طويلة كقباب الكنيسة وكان الضوء المنساب عبر النوافذ ذات الزجاج الملون يظلل الشاعر بألوان مشعة حين كان يجلس في سريره مستقبلاً أصدقاءه . لم يعش ليتمتع بهذا المنزل حتى ولو لسنة واحدة .

البيت الوحيد الذي يجد قارىء نيرودا علاقة له بشعره هو بيته في ايسلا نيغرا . جيل جديد من المعجبين لم يكن عمره أكثر من ثماني سنوات عندما كان الشاعر لا يزال على قيد الحياة ما زال يتجمع هناك . يتوافدون من كل جهات الدنيا ليرسموا قلوباً يحفرون عليها الأحرف الأولى من أسمائهم وليكتبوا رسائل حب على السياج الذي يسد المدخل . غالبيتها تتناول معنى واحداً : جوان وروزا يحبان بعضهما خلال بابلو ، شكراً لك يا بابلو لأنك علمتنا الحب ، نريد أن نحب كما أحببت أنت . وهناك معان أخرى لا يستطيع الكارابينيرو منعها أو طمسها من مثل : أيها الجنرالات الحب لا يموت أبداً . الليندي ونيرودا يعيشان . دقيقة واحدة من العتمة لن تعمينا . وقد كتبت في أكثر الأماكن التي لا يمكن للمرء أن يتوقعها . وبسبب ضيق المساحة يوحي السياج بأن أجيالاً عديدة من الكتابات قد وضعت فوق بعضها . ولو توفر الجلد لأحد لتمكن أن يعيد بناء قصائد نيرودا كاملة من المقاطع المتناثرة المكتوبة من الذاكرة على ألواح السياج بأقلام المحبين . هذه الكلمات بدت وكأنها تحيا كل عشر أو خمس عشرة دقيقة مع الاهتزازات العميقة الغور التي تزلزل الأرض ، وكأن السياج سيقتلع ، الخشب يئن عند الفواصل ، أصوات اهتزاز الأواني الزجاجية والمعدنية وكأنها على



يخت في مهب الريح ، العالم كله يرتجف بكـل الحب الذي زرع في حديقة ذلك المنزل .

كل حذرنا في ذلك الوقت لم يعد مهماً ، آلة تصويرنا لم تصادر ولم يزعجنا أحد ، ذلك أن رجال الكارابينيـرو ذهبوا لتنـاول الغداء فتمكنـا من تصويـر ما نـريد تصـويره ويستحق « ايـغـو » منـا وافـر الشكر . فالاهتزازات جعلت البحر هـائجاً بشكـل كبير . سـار إلى وسـطه عبر الأمـواج التي كانت تتكسـر على الصخور منـذ ما قبـل التاريخ . كان يخاطر بحياتـه : حتى وبدون الهـزات الأرضية فـإن التيار تحت سطح الماء كان يمكن أن يجرفه حيث يتعذر إنقاذه ولكنه كان يصور دون توقف ودون أن يوجهه أحد ملتصقاً بباحث الصورة . إن أي امرىء يعرف مهنة السينما من الداخل يعرف أنه من المحال أن تضبط أو توجه كميراماك مأخوذ .

غراتسيا ذهبت إلى السماء

وكما خططنا كانت كل بكرة تصـوير تنتهي تـرسل على جنـاح السرعة إلى سانتياغو كي تتمكن غراتسيا أن تنقل هذه البكرات إلى إيطاليا دفعة واحدة . موعد رحيلهـا لم يختر عـرضاً . في الأسبـوع الماضي كنا ندرس أفضل طـريقة لإخـراج المواد التي صـورت من التشيلي إذ أن القنوات السرية الملحوظـة في الخطط الأسـاسية لم يكتب لهـا النجاح . كنـا نحاول مـواجهة المشكلة عنـدما أعلن أن الكاردينال الجديد لتشيلي المونسينيور فـرانسيسكو فـريسنو سيصـل سانتياغو ليحل محـل الكاردينـال سيلفا هنـريكيز الـذي أحيل على التقـاعد في الخـامسة والسبعين من عمـره . الكاردينـال سيلفا بـدا للشعب في تشيلي نمـوذجاً للشجـاعة والنضـال وقد خلق تـراثاً من

العرفان الشعبي العميق بالجميل . إذ أن تضامن أبرشيته مع الجماهير كان شوكة مستمرة في خاصرة النظام الديكتاتوري . ولأسباب وجيهة كان كهنته يعملون كنجارين وبنائين وعمال عاديين جنباً إلى جنب مع سكان أحياء البوبلاسيونيس الفقيرة . عدد منهم قضى برصاص رجال الشرطة في الشوارع أثناء التظاهرات . وقد تنادت الحكومة للقيام باحتفال كبير مناسب للترحيب بالكاردينال فريسنو . حتى حال الحصار رفعت لمدة أربع وعشرين ساعة . فالموقف السياسي للكاردينال الجديد لا يزال غير مؤكد . فسر هذا الترحاب كاحتفال من بينوتشه بتقاعد الكاردينال سيلفا هنريكيز . في الوقت نفسه بدأ الجنرال بينوتشه جولة لمدة أسبوعين في شمال البلاد مصطحباً أسرته وحاشيته من الوزراء الجدد غير المشهورين . ومما لا ريب فيه أن دافعه إلى ذلك الرغبة في أن لا يشترك لا هو ولا هم في حفل الاستقبال الذي يمكن أن يسفر عن نتائج غير متوقعة . الناس وقد أربكتهم المواقف الرسمية المتناقضة لم يظهر منهم في ساحة أرماس سوى ما يقرب من ألف شخص مع أن التوقعات كانت تشير إلى إمكان حضور ستة آلاف شخص .

لم يكن من الصعب علينا أن نفترض أن يوماً يعرف مثل تلك البلبلة على المستوى الرسمي سيكون مؤاتياً جداً لإخراج أول دفعة من أشرطة الفيلم من البلاد ، عندما وصلت غراتسيا إلى المطار كانت الحراسة أكثر من عادية ، ولكنه كان مكتظاً تسوده البلبلة إلى درجة أن البوليس نفسه ساعد غراتسيا في تسجيل حقائبها لتستقل الطائرة نفسها التي وصل عليها الكاردينال كي لا تتأخر عن موعد الإقلاع . بعد ذلك وفي الليلة نفسها وصلتنا من فالباريزو رسالة الشيفرة : صعدت غراتسيا إلى السماء .




مكتبة
الفكر الجديد

البوليس يطارد : أخذت الحلقة تضيق



بينما كنت أصور في كونسبسيون وفالباريزو دون أن أتصل بإيلينا أخذ القلق ينتابها أكثر فأكثر . كـان عليها أن تعلن اختفـائي ولكنها منحت نفسهـا بعض الـوقت لأنهـا تعـرف أنني مـزاجي لا يمكن تقويمه . وهكـذا انتظرت طـوال ليل السبت ، ولمـا لم أظهر نهـار الأحد اتصلت بمن ظـنّت أنه يمكن أن يعرف مكان وجودي ولكن لم يكن لدى أحدهم أدنى فكـرة . قررت أن يكـون ظهر نهـار الاثنين الحد الأخير لإعلان الإنذار وإذ بها تراني أتجه نحو الفندق بوجه غير حليق أغـالب النعاس . أخبـرتني أنها نفـذت غير قليـل من المهام الخطيرة الهامة ولكنها أقسمت لي أنه لم يسبق لها أن عرفت الأمرّين مع أي زوج مزيف حتى مع أكثرهم تمرداً كما عرفتهما معي . هذه المرة كان لديها بالفعل دوافع حقيقية للغضب مني .

وبعد جهود مضنية ومواعيد للقاءات لم يتقيد بها ومناورات غاية في التعقيد استطاعت إيلينا أخيراً أن تـرتب لي لقاء مـع قادة جبهـة مانويل رودريكيز الوطنية السرية في الساعة الحادية عشرة من صباح ذات يوم . وكان هذا دون ريب أخطر مـا قمنا بـه حتى الآن وأكثره أهمية . تكاد تكون الجبهة مؤلفة حصراً من عناصر كـانوا قـد أنهوا المدرسة الابتـدائية للتـو حين استولى بينـوتشه على السلطة . وقـد استطاعت أن توحد المعارضة الديمقراطية ضد الديكتـاتوريـة حول شعار حقوق الإنسان التي لا تحول ولا تزول والتي تعتبر أساس كل الحريات الديمقراطية . وقد استوحت اسمها من شخصية أسطورية من شخصيات حركة التحرير التشيلية سنة ١٨١٠ والتي كانت تتميز بمقـدرة فائقـة في الإفلات من كـل رقـابـة سـواء داخـل البـلاد أو خارجها . وقد استطاعت جبهة رودريكيز أن تقيم اتصالات ثابتة بين جيش التحرير العامل في مندوزا من جهة الأرجنتين والقوات السرية



التي استمرت في المقاومة داخل تشيلي بعد أن هزم الوطنيون واستعاد الملكيون السلطة . في الواقع الحال يومذاك يشبه كثيراً الأوضاع الحالية في تشيلي .

لقاء قادة من الجبهة الوطنية إنجاز صحفي ضخم بالنسبة لأي صحافي جيد . لم أكن لأشذ عن هذه القاعدة . بعد نشر أعضاء فريق التصوير في النقاط المختلفة التي كانت الجبهة قد حددتها استطعت أن أصل أنا إلى المكان في آخر لحظة من الوقت المحدد . وصلت إلى محطة الباص في كال بروفيدنسيا حاملاً كما طلب مني نسخة من جريدة « الميركيريو » الصادرة في ذلك النهار وأخرى من مجلة « كي باسا » ثم علي أن لا أفعل شيئاً إلى أن يقترب مني شخص ويسأل : « هل تقصد المسبح ؟ » وعلي أن أجيب : « كلا ! بل إلى حديقة الحيوانات » . كلمة السر هذه بدت لي كأنها سخيفة إذ لن يفكر أحد بالذهاب إلى الشاطىء في الخريف ، ولكن ضابطا ارتباط الجبهة أخبراني فيما بعد أنه نظراً لغرابة ذلك التعبير فإن أحداً لن يستخدمه بالصدفة . بعد عشر دقائق أخذت أشعر بالخوف إذ أنني بدأت ألفت النظر . رأيت فتى نحيلاً جداً مربوع القامة يعرج من رجله اليسرى يقترب نحوي . كان يرتدي قبعة خيل إلي أنها هدية من ميت . قصدني بشكل واضح فاتجهت لملاقاته وقبل أن يلفظ كلمة السر سألته ضاحكاً : أهذا أفضل زي تنكري استطعته ؟ حتى أنا تمكنت من التعرف عليك في هذا الزي .

- هل هو سهل الاكتشاف ؟
- من على مسافة ميل يمكن ذلك .

كان الشاب يتمتع بروح النكتة لا بتزمت العاملين في السر مما



ساعد في تلطيف الجو فوراً . لم يكد يقترب مني حتى توقفت إزاءنا سيارة صغيرة تحمل تمغة توزيع الخبز فشغلت المكان قرب السائق . وبعد ذلك أخذنا نلف وندور في وسط المدينة لالتقاط أعضاء المجموعة الإيطالية من أماكن مختلفة . ومن ثم وزعونا على خمس نقاط أخرى . بعد ذلك نقل كل منا في سيارة على حدة . في نهاية المطاف التقينا من جديد في شاحنة صغيرة حيث كانت ترقد الكاميرات وأجهزة التسجيل . لم أشعر أنني أقوم بمغامرة جدية مهمة وحقيقية بقدر ما شعرت وكأنني أمثل دوراً في فيلم جاسوسي . أما الولد ذو القبعة فقد اختفى خلال إحدى المناورات الكثيرة ولم أره ثانية . أخذ مكانه سائق آخر لم يكن يعارض المرح ولكنه قام بعمله بدقة متناهية . جلست إلى جانبه وصعد بقية أفراد المجموعة في صندوق الشحن .

- سآخذكم الآن في نزهة ، قال لنا ، كي تستنشقوا هواء تشيلي البحري .

فتح جهاز الراديو بكامل طاقته وراح يلف ويدور في المدينة إلى أن فقدت القدرة على معرفة مكاني . لم يكتف بذلك إذ طلب إلينا بعد برهة أن نغمض عيوننا مستخدماً عبارة تشيلية كنت قد نسيتها « حسناً أيها الأولاد » قال « ستقومون الآن بتاتيتو» . وعندما لم نستجب على الفور أعاد الأمر على مسامعنا بقوة أشد : « حسناً إذن أغمضوا عيونكم ولا تفتحوها حتى أقول لكم والآن ستكون نهاية الاتفاق » . أخبرنا أنه كان كلما أقل أناساً إلى مكان ما عليهم أن يضعوا نوعاً خاصاً من النظارات العمياء التي تبدو وكأنها نظارات شمسية من الخارج ولكنها ليست شفافة ولكنه نسي إحضار هذه النظارات معه وهكذا كان علينا إغماض عيوننا . لم يستطع



الإيطاليون فهم لغته العامية وكان علي أن أقوم بالترجمة . قلت لهم : « ناموا » ، ارتبكوا متسائلين : « ننام ؟ » ، « كما سمعتم » ، أجبت : « استلقوا واغمضوا عيونكم ولا تفتحوها حتى أقول لكم » .

المسافة بالضبط : عشر رقصات بوليرو

رقد فريق التصوير مضغوطاً الواحد إلى جانب الآخر في أرض الشاحنة بينما رحت أحاول أن أعرف في أية جهة من المدينة نسير ، لكن السائق صدني بسرعة قائلاً : كل ما ذكرته ينطبق عليك أيضاً أيها الرفيق ، إذن ما عليك سوى أن تنام . أسندت رأسي إلى الوراء على كرسي السيارة وأغمضت عيني وتركت نفسي أحلم على أنغام فيضان من البوليرو ينبعث من المذياع، أغان لروول تشه مورينو وليتشو غاتيكا وهيغو روماني وليو ماريني . تمر الأيام وتتلاحق الأجيال ولكن البوليرو تبقى الأكثر سيطرة على قلوب التشيليين . كانت الشاحنة تقف بين الفينة والأخرى ، وكنا نسمع تمتمة غير مفهومة ثم صوت السائق وهو يقول : « حسناً إلى اللقاء » . تخيلت أنه كان يتحدث إلى حركيين آخرين يعطونه تعليمات في نقاط هي مفاتيح الطريق ، عندما ظننت أنه لا يراقبني حاولت أن أفتح عيني فاكتشفت أن مرآة السيارة الخلفية مركزة بطريقة تسمح له بالقيادة ومخاطبة عناصر الارتباط ومراقبتنا .

ـ « شقي ، شقي ! » إذا فتح أحدكم عينيه في المرة القادمة على اللقاء السلام ويرجع كل واحد من حيث أتى » ، أقفلت عيني بسرعة ورحت أتابع غناء المذياع : كي تي كييرو ، سابراس كي تي كييرو «إنني أحبك ولسوف تعرف أنني أحبك » شاركني الإيطاليون



في المؤخرة بالغناء . سر السائق : « هذا أفضل يا أولاد ! غنوا فقط . هذا جميل حقاً ؟ لا تقلقوا أبداً فأنتم بأيد أمينة » .

قبل ذهابي إلى المنفى كانت هناك بعض الأماكن في سانتياغو أستطيع أن أتعرف عليها وعيناي مغمضتان : المسلخ بسبب رائحة الدم المسفوح ، قطاع سان ميغيل من رائحة زيوت المحركات ومواد السكك الحديدية . في مكسيكو حيث أقمت لسنوات عدة كنت أستطيع أن أتبين أنني بالقرب من أوتوستراد كيرنافاكا بسبب رائحة تنبعث من مصنع الورق أو أنني بالقرب من ازكا بوتزالكو بسبب الدخان الصاعد من مصفاة البترول . ومع ذلك لم أستطع أن أتبين أي رائحة مألوفة في ذلك المساء في سانتياغو . ولكن بدافع من الفضول بقيت أحاول بينما كنا نغني ، عندما انتهى البوليرو العاشر توقفت الشاحنة . قال السائق محذراً : ابقوا عيونكم مغمضة ! سنخرج من الشاحنة الآن محافظين على سلوكنا الحسن ونسير ممسكين بأيدي بعضنا كيلا تقعوا وتؤذوا مؤخراتكم .

نفذنا ما طلب منا وبدأنا نصعد ثم نهبط في ممر منحدر لين التراب وكأنه لم ير نور الشمس كثيراً . في نهايته دخلنا مكاناً معتماً وأقل برودة تنبعث منه رائحة سمك . للحظة ظننت أننا في فالباريزو على الساحل مع أنني لا أظن أن الرحلة استغرقت الوقت الكافي لذلك . وعندما أمرنا السائق أخيراً أن نفتح عيوننا وجدنا أنفسنا في غرفة ضيقة ذات جدران عارية وأثاث رخيص وإنما معتنى به جيداً . وقف أمامي شاب حسن الهندام يضع شارباً مزيفاً ملصقاً بغير عناية إلى حد أثار ضحكي :

ـ يجب أن تهتم بهما أكثر ، لن يخدع أحد بهذين الشاربين » .



ضحك هو الآخر ونزعهما قائلاً : « لقد كنت على عجلة من أمري » .

كسر الجليد وانتقلنا إلى غرفة مجاورة ونحن نتبادل النكات حيث يرقد شاب على سرير مضمد الرأس ، يبدو أنه يغط في نوم عميق . عندها عرفت أننا في مستشفى سري جيد التجهيز وأن المصاب هو فرناندو لاريناس سيغيل الذي يتصدر قائمة المطلوبين من قبل السلطة .

إنه في الحادية والعشرين من العمر ، عضو فاعل في جبهة مانويل رودريكيز الوطنية . منذ أسبوعين وبينما كان عائداً إلى منزله في سانتياغو بسيارته في الساعة الواحدة فجراً وحيداً ودون سلاح ، أحاط به فجأة أربعة مسلحين ببندقيات الجيش وهم في ثياب مدنية . ودون إصدار أي أمر أو طرح أي سؤال عليه أطلق عليه أحدهم النار من نافذة السيارة ، فاخترقت الرصاصات ذراعه اليسرى وأصابت جمجمته. وبعد ثماني وأربعين ساعة أنقذه أربعة ضباط من الجبهة مخاطرين بحياتهم من مستشفى نووسترا سينيورا دي لا نييف حيث كان يرقد في غيبوبة تحت حراسة مشددة ونقلوه إلى إحدى مستشفيات الحركة السرية الأربع . ويوم لقائنا كان قد استعاد عافيته وبات قادراً على الكلام والإجابة على أسئلتنا .

بعد ذلك بعدة أيام كان لنا لقاء مع القيادة العليا للجبهة الوطنية . اتخذت الاحتياطات نفسها التي تشبه تلك التي في أفلام الجاسوسية . هذه المرة بدل مستشفى سري نقلنا إلى منزل من منازل الطبقة الوسطى . بدا المنزل مريحاً يسر النفس ، يحوي مجموعة كبيرة من التسجيلات الكلاسيكية ومكتبة ممتازة . كنا ننوي



تصويرهم ملثمين ولكننا قررنا استخدام زوايا وأساليب إضاءة متنوعة لحماية هويتاهم . وكانت النتيجة كما ظهرت في الفيلم الوثائقي أكثر واقعية وأكثر إنسانية وأقل إثارة للرعب من اللقاءات العادية مع القادة السريين .

عندما اكتملت اللقاءات مع مختلف قادة المقاومة اتفقت أنا وإيلينا على أن ترجع هي إلى نشاطاتها العادية في أوروبا حيث كانت تعيش منذ مدة . عملها السياسي كان من الأهمية بحيث أنه لا يجوز دون دواع ملحة تعريضها المستمر لأية مخاطر أخرى . وقد أصبح لدي من الخبرة ما يسمح لي بإنهاء ما تبقى من أجزاء الفيلم التي من المفترض أن تكون أقل خطورة وذلك دون مساعدتها . منذ ذلك الحين لم أرها . ولكنني أثناء إيصالها إلى محطة المترو وأنا أرقبها بتنورتها الاسكوتلندية وحذاء تلميذة المدرسة ، أيقنت أنه بعد كل تلك الساعات من الحب المصطنع والمخاوف الحقيقية سأفتقدها أكثر مما كنت أتصور .

في الحال التي كان على فرق التصوير الأجنبية مغادرة تشيلي لظروف قاهرة أو بسبب منعها عن العمل ، كان قسم من المقاومة الداخلية جاهزاً بفريق مساند من السينمائيين الشباب العاملين في صفوفها . هذا الفريق قام بعمله بنفس سرعة الآخرين وبنتائج جيدة مشابهة . وكانوا يبزونهم حماساً ربما لأنهم كانوا من الناحية السياسية أكثر إيماناً بما يقومون به . منظمتهم السياسية أكدت لنا أنهم ليسوا فقط موضع ثقة كاملة وإنما هم أيضاً على استعداد تام للقيام بأية مخاطرة ، عندما قاربنا النهاية واحتجنا أناساً أكثر للتصوير في البوبلاسيونيس ولم يعد لدينا أجانب كفاية ، أخذ هذا الفريق



على عاتقه تنظيم مجموعات أخرى عمدت بدورها إلى الاعتماد على مجموعات جديدة ، وفي النهاية أصبح لدينا ست مجموعات تصوير تعمل في وقت واحد في أماكن متعددة . لقد لاحظت أن هؤلاء الشبان يمثلون تصميم الجيل الجديد الذي انطلق يعمل بثبات ودون تبجح مصمماً على إنقاذ التشيلي من كارثة الحكم العسكري . . وعلى الرغم من عمرهم الغضِ فإنهم جميعاً لا يملكون رؤياهم للغد وحسب بل إن لهم تاريخاً حافلاً بأعمال غفل من الأسماء وانتصارات غير معلنة ينظرون إليها بتواضع تام .

الحلقة بدأت تضيق

عادت المجموعة الفرنسية إلى سانتياغو في الوقت الذي كنا نقابل فيه قادة الجبهة وقد أنهت البرنامج المقرر بنجاح . وكان هذا جزءاً أساسياً من الوثيقة إذ أن الشمال مفصل أساسي في تاريخ تطور التشيلي السياسي بدءاً من لويس إميليو ريكابارين مؤسس أول حزب عمل في مطلع هذا القرن إلى سلفادور الييندي مما يتيح رصيد استمرارية الايديولوجية السياسية هناك . كما أن اكتشاف الإنكليز لمناجم النحاس الغنية في القرن الماضي كان سبباً لنشوء طبقتنا العاملة . وكانت الحركة الاجتماعية التشيلية التي نتجت عن ذلك أهم حركة من نوعها في أميركا اللاتينية .

كان التقرير الذي قدمه جان كلود رئيس الفريق الفرنسي في غاية الشمول والإسهاب . كان علي أن أتصور كيفية ظهور كل شيء على الشاشة بشكل يحفظ وحدة الفيلم إذ لم يكن لدينا ـ ولن يكون ـ نسخ متعجلة قبل العودة إلى مدريد وعندها سيكون الوقت قد فات لإدخال التعديلات .



ولأسباب أمنية لم يكن لدينا أماكن التقاء محددة في سانتياغو وهكذا كنت أنا وجان كلود نطوف حول المدينة لنتحدث . سرنا راجلين في وسط المدينة . ركبنا في باصات الخطوط الأقل ازدحاماً ، وتناولنا القهوة في أكثر المقاهي ازدحاماً ، تناولنا المحار والبيرة . ثم وجدنا أنفسنا بعيدين جداً عن الفندق وقد بدأ الليل بالهبوط . قررنا أن نعود بواسطة المترو . بناء نفق المترو بدأ في عهد الرئيس « فريه » ، تابع أليندي ذلك وأنجز في أيام الحكم العسكري ، فأهداه لنفسه وأطلق اسمه عليه ، وهكذا دخلت عالماً لم أكن قد اكتشفته بعد . فوجئت بالنظافة وبنوعية العمل والاستعداد الذي أبداه أهل بلدي للسفر تحت الأرض . لم يكن لدينا سبب مقنع لطلب إذن بالتصوير في أنفاق المترو ، لكن كون الفرنسيين هم الذين بنوه أوحى لنا بفكرة أن جان كلود وفريقه يمكن أن يقوموا بالتصوير هناك . كنا نناقش هذه الفكرة عندما وصلنا إلى محطة بدرو فالديفيا . وبينما كنا نرتقي السلم باتجاه المخرج شعرت أننا مراقبون ، بالفعل هناك شرطي يرتدي ثياباً مدنية يراقبنا بشكل مركز إلى درجة أنني عندما ألتفت إلى الوراء التقت نظراتنا .

كنت قد خبرت تمييز رجال الشرطة المتخفية حتى ولو وسط جمهور غفير . فعلى الرغم من معاطفهم الزرقاء الداكنة وتسريحة شعرهم القصيرة التي تشبه تسريحة المجندين الجدد فإنهم يعتقدون أنهم يبدون كالمدنيين . ولكن ما يفضحهم بالدرجة الأولى عو طريقة تحديقهم بالناس . فالتشيليون لا ينظرون إلى أحد في الشارع . إنهم يبقون أنظارهم متجهة إلى الأمام عندما يسيرون أو يستقلون باصاً ، وهكذا وعندما استمر هذا البدين ينظر إلي مع أنه تأكد بأنني اشتبهت به أدركت أنه شرطي ، يضع يديه في جيبي



معطفه الثقيل ، تتدلى سيجارته من فمه ، مبقياً عينه مغمضة ضد الدخان في تقليد مؤثر للتحري في الأفلام السينمائية . ذكرني بـ «فاتس ورومو» الرجل الضارب الذي كان يعتقل الحركيين السريين على أنهم يساريون متحمسون ومن ثم يقتلون ويغتالون .

أعترف أن التفاتاتي إليه كانت خطأ مميتاً ، ولكني لم أستطع مقاومة ذلك . لم يكن عملاً إرادياً بل دافعاً غير واع ، غريزة ردة الفعل جعلتني ألتفت يمنة ويسرى فرأيت اثنين آخرين منهم ، « حدثني عن أي شيء » همست لجان كلود . « تكلم ، لا تشر بيديك ، لا تلتفت ، لا تقم بأي شيء » . فهم وبقينا نسير دون عجلة إلى أن بلغنا الشارع . الوقت ليل ، ولكن الطقس أصبح لطيفاً وأكثر وضوحاً عما كان في الأيام السابقة . وكان هناك أناس كثيرون يعودون إلى منازلهم عبر الألاميدا . انفصلت عن جان كلود قائلاً : « اختفِ ، سأتصل بك لاحقاً » . فاندفع باتجاه اليمين ، أما أنا فقد ضعت بين الناس على رصيف الشارع ، في تلك اللحظة بالذات توقفت سيارة تاكسي كأنّ أمي أرسلتها قريباً مني فقفزت إليها . استطعت رؤية الرجال الثلاثة الذين خرجوا من نفق المترو للتو ينظرون حولهم بدهشة ، لا يعرفون أيلحقون بي أم بجان كلود . بدأت أفقد رؤيتهم عندما انطلقت السيارة . اجتزت بالسيارة أربعة أحياء ، ثم استقليت سيارة أخرى في الجهة المقابلة ثم سيارة أخرى فثانية حتى بدا لي أنه من غير الممكن النجاح في تعقبي . الشيء الوحيد الذي لم أفهمه وما زلت لا أفهمه هو لماذا أرادوا ملاحقتنا . أخيراً توقفت أمام أول دار للسينما صادفتها ، دخلتها دون أن ألاحظ ماذا تعرض مقتنعاً كالعادة من خلال تجارب محترفين أنه لن يكون هناك مكان أكثر أمناً ويصلح للتفكير .



كيف ترى فلقة عجيزتي يا سيدي ؟

اتفق أن البرنامج كان مؤلفاً من عرض سينمائي وعرض حي . فما كدت أستقر على الكرسي حتى انتهى عرض الفيلم . وأضيئت الصالة نصف إضاءة وأخذ مدير الاحتفال يقدم العرض بمقدمة طويلة . كنت لا أزال مضطرباً إلى درجة أنني التفت إلى الوراء ناحية الباب لأرى إن كنت ملاحقاً . أخذ جيراني القريبون مني بدورهم يلتفتون معي إلى الوراء بفضول هو تقريباً نظام السلوك البشري . وفي مكان كهذا يمكن أن يكون لكل واحد منهم سبب ليقلق من أن يكتشف . كل شيء كان مبهرجاً ويعوزه الذوق : الزينة ، الأضواء ، السينما ، التعري ، وخاصة الجمهور . كل واحد منهم بدا كأنه لاجىء من مكان لا يعرفه سوى الله . لو رآهم أي رجل من الشرطة لساقهم أمامه كأشخاص مشبوهين .

مدير المسرح شجع انطباع « عرض ممنوع » . رئيس الاحتفالات كان يقدم راقصات التعري على المسرح بصفات تناسب أكثر أطباقاً خاصة في وجبات طعام . كل فتاة تبرز أكثر عرياً مما أتت إلى الوجود . يعدل جسدها بمواد تظهر جمالاً ليس فيه أصلاً . بعد العرض الافتتاحي قامت فتاة سمراء برقصات وانحناءات والتفاتات كثيرة على المسرح . حركة شفتيها تتزامن مع تسجيل لصوت روسيو ديركال يذاع بشكل عال يصم الآذان . وفي اللحظة التي صممت فيها على المخاطرة بالرحيل نزلت عن المسرح تحمل ميكروفوناً متصلاً بسلك طويل وأخذت توجه للجمهور أسئلة بذيئة بهدف إمتاعهم . كنت أنتظر اللحظة المناسبة للخروج عندما بهرني ضوء ساطع سلط علي فجأة .



ـ أنت يا سيد صاحب الصلعة الجذابة .

لم تكن تشير إلي بالطبع بل إلى شخصيتي الثانية . لسوء الحظ كان علي أن أجيب . اقتربت مني كثيراً ، المذياع في يدها حتى استطعت أن أشم رائحة البصل من فمها :

كيف ترى ردفي ؟
ـ جميل جداً . أجبتها عبر الميكروفون : ماذا تريدين أن أجيب ؟ .

أدارت ظهرها وهزت مؤخرتها ذات اليمين وذات الشمال أمام وجهي تماماً .

ـ فلقة مؤخرتي يا سيدي ما رأيك بها ؟
ـ « هائلة » ! أجبت « إنها حقاً ذات شأن » !

بعد كل إجابة كانت تنطلق قهقهات خلال مكبرات الصوت كما في برامج التلفزيون الأميركي . كل من في المسرح بدوا وكأنهم يتمنون إظهار أنفسهم . ازداد اقتراب راقصة التعري مني . تلوت قليلاً أمام وجهي وأظهرت خالاً حقيقية سوداء ملأى بالشعر على فلقة من مؤخراتها !

ـ « طبيعي » ، قلت « أنت جميلة من كل الجهات » .
ـ « ماذا تفعل إذا عرضت عليك أن أمضي ليلة معك في الفراش ، هيا أخبرني الآن بكل شيء » .
ـ حسناً ! لا أعرف ماذا أخبرك . ولكنني بالفعل سأستمتع بذلك .

التعذيب كان قاسياً ، ولكي أزيد الأمر سوءاً كنت أتحدث



كـأرغوائي ، ثم حـاولت في آخر لحـظة أن أعـدل لهجتي . مقلدة لهجتي المتلعثمة سألتني من أين أنا ، أخبرتها قالت بدهشة :

ـ الأرغوائيون ممتازون في الفراش ، وماذا عنك ؟

لم يكن لدي خيار سوى أن أبدو غاضباً متجهم الوجه :

ـ أرجوكِ لا تسأليني أسئلة أخرى . قلت لها .

أدركت أنني مـوضوع غيـر قابـل فانصـرفت تبحث عن ضحية جديدة . وحالما وجدت أنني أستطيع الفرار دون أن يلاحظني أحد غادرت المكان بأسرع ما استطعت وعدت إلى الفندق الذي أنزل فيه مقتنعاً أن لا شيء مما حدث لي ذلك المساء كان مجرد صدفة .



كن مستعدا

هناك جنرال قادر على سحق كل شيء



بعيداً عن الاتصالات التي تقوم بها إيلينا ، بدأت أعمل مع أصدقاء قدماء أحباء ساعدوني على تكوين المجموعات التشيلية وهيأوا لي أجواء التنقل بحرية في الأحياء الشعبية البوبلاسيونه . أول شخص حاولت الاتصال به بعد عودتي من كونسبسيون كان لويزا امرأة جميلة أنيقة تزوجت من رجل أعمال مهم .

كنت أنا ولويزا قد التقينا خلال العمل السياسي في الجامعة ، وأصبحنا صديقين حميمين خلال حملة سلفادور اليندي الرئاسية الأخيرة حيث اشتركنا معاً بالحملة الدعائية . بعد أيام قلائل من وصولي سمعت أنها كانت شخصية بارزة في شركة رائدة للعلاقات الاجتماعية . قبل الاقتراب منها قمت باتصال مجهول دون أن أعرف بنفسي لأتأكد أنها الشخص الذي أعرفه . الصوت الرقيق الواثق من نفسه هو صوت مألوف لدي ولكن طريقة الأداء أقلقتني . ولكي أتأكد تماماً اتخذت مقعداً في مقهى على كال هيورفانوس حيث أستطيع مراقبة مدخل منزلها . كانت هي بل بدت أكثر جمالاً وأناقة . لاحظت أيضاً أنه ليس عندها سائق لسيارتها الفضية اللامعة من طراز ب. أم. دابل يو. ٦٣٥ كما هو متوقع من زوجة برجوازي مهم . أرسلت لها بطاقة بريدية من سطر واحد : أنطونيو هنا ويود أن يراك . كان هذا الاسم المستعار الذي كنت أستعمله أيام الكفاح السياسي في الجامعة ، وكنت متأكداً أنها لم تنسه .

وبالفعل فإنها لم تنسه ، في تمام الواحدة انساب القرش الفضي ببطء إلى كال أبوكيندو وتوقف أمام شركة الرينو للسيارات . قفزت إلى داخل السيارة وأقفلت الباب ورائي ونظرت إلي بذعر إلى أن سمعت ضحكتي التي لم تنسها أيضاً :



ـ هل أضعت عقلك ؟ قالت .

ـ أو تشكين في ذلك ؟ أجبت .

ذهبنا إلى المطعم الذي كنت قد ذهبت إليه وحيداً أول يوم لي في سانتياغو ، ولكن المدخل كان مقفلاً وقد علقت عليه لافتة كما على ضريح تقول : « مقفل إلى الأبد » . انتهينا إلى مطعم فرنسي في المنطقة نفسها ، كان مكاناً لطيفاً وهادئاً على ناصية شارع فيه موتيل شهير . أثناء الغداء راحت لويزا تسلي نفسها بالتعرف إلى سيارات زبائنها الذين أخذوا يفيدون من التسهيلات أثناء الغداء ولم أستطع التغلب على ميلها غير المكبوت للمزاح .

لم أتردد في إخبارها عن سبب زيارتي السرية طالباً مساعدتها في القيام ببعض الاتصالات التي ربما كانت أقل خطورة على امرأة مثلها تتمتع بتلك الحماية نظراً لمكانتها الاجتماعية . كان هذا في وقت كنا نعاني فيه مشاكل في التصوير في البوبلاسيونيس إذ كنا نفتقر الضمانة السياسية الكافية وافترضت أنها تستطيع مساعدتي في تحديد أمكنة أصدقاء نعرفهما سوية منذ أيام الاتحاد الشعبي والذين كنت قد فقدت أثرهم ليلة نفيي .

لم تكتف بقبول المهمة بحماس وحسب بل رافقتني بنفسها إلى اجتماعات سرية لثلاث ليال في أحياء من المدينة لا يصعب على مثل سيارتها الظهور فيها إذ من المستحيل التصور أن سيارة ب . أم . دابل يوم . ٦٣٥ يمكن أن تكون معادية للديكتاتورية علقت بابتهاج .

وبالفعل فإن الـ ب . أم . دابل يو أنقذتني ذات ليلة من الاعتقال . وذلك عندما فاجأنا تقنين التيار الكهربائي في اجتماع سري ، كانت



المقاومة قد نبهتنا أنهم سيقطعون التيار عدة مرات في ذلك اليوم . في البدء سيقطعونه مدة أربعين دقيقة ثم مدة ساعة وأخيراً ستبقى سانتياغو دون تيار لمدة يومين أو ثلاثة . لهذا حدد موعد الاجتماع في وقت مبكر لأن القوات المسلحة كانت تصاب بما يشبه الهستيريا في فترة انقطاع التيار الكهربائي حيث تصبح حملات المداهمة وحشية وتتم دون تمييز . ولكن حدث شيء مفاجىء وبدأ انقطاع التيار الكهربائي الأول ونحن لا نزال نتحدث . قرر السياسيون المشاركون في الاجتماع أن أخرج أنا ولويزا فور عودة التيار . حالما أضيئت الأنوار انطلقنا بسيارتنا سالكين طريقاً ترابية مشقوقة على سفح الجبل ، بينما كنا نجتاز أحد المنعطفات وجدنا أنفسنا فجأة وسط حاجز من سيارات أمن الدولة متوقفة على جانبي الطريق مؤلفة ما يشبه النفق . كانوا رجالاً في ثياب مدنية يحملون رشيشات . أرادت لويزا أن تقف فقلت لها ألا تفعل .

ـ ولكن علينا أن نتوقف ، قالت لويزا .

ـ تابعي السير ، قلت لها ، لا تقلقي استمري في الحديث والضحك . لا تتوقفي إلا حين يأمرونك . لا تجزعي أوراقي الثبوتية على ما يرام .

وبينما كنت أقول ذلك لمست جيبي بيدي ، شعرت أن أحشائي تتجمد . لم أحضر المغلف الذي يحوي أوراقي الثبوتية . عبر أحد الرجال الطريق أمامنا ، رفع يده طالباً إلينا التوقف . أوقفت لويزا السيارة . سلط ضوءاً يدوياً على وجهينا ثم داخل السيارة ، أشار إلينا أن نسير . كانت لويزا على حق ، من غير الممكن أن يرتاب بسيارة كسيارتها .



جدة لها « باراشوت »

في ذلك الوقت عرفتني لويزا إلى حماتها التي قررنا أن نسميها كليمنسيا ايزورا لأسباب لم نستطع أن نتذكرها . وصلنا دون سابق موعد إلى منزلها الفخم رقم ٧٢٧ في حي مرتفعات سانتياغو الأرستقراطي في تمام الخامسة مساء . كانت كليمنسيا أرملة في السبعين من العمر تحارب الوحدة بمشاهدة التلفزيون . كانت تحلم بأن تصبح يوماً بطلة في مغامرة حقيقية . لقيناها في حالتها الهادئة المعتادة تحتسي الشاي مع البسكويت الإنكليزي وهي منصرفة إلى مشاهدة التلفزيون الذي ينبعث منه أصوات إطلاق نار . ترتدي طقماً رمادياً يتميز بدقة الخياطة وجمالها وتضع قبعة وقفازين رماديين أيضاً . اعتادت أن تحتسي الشاي في تمام الخامسة مرتدية ما يليق بحفلة مع أنها كانت وحدها . على الرغم من ذلك فإن تلك العادات المأخوذة من قصة إنكليزية لم تكن تناسب شخصيتها في الواقع . فقد سبق لها وتزوجت وأنجبت عدة أولاد وعملت قائدة طائرة شراعية في كندا وسجلت فيما بعد رقماً قياسياً كمظلية .

عندما عرفت أننا نقصدها للقيام بعمل سري مهم وخطر قالت :

- « هذا رائع ! الحياة هنا مملة جداً إلى درجة أن المرء هنا لا يقوم إلا بالاهتمام بالتزيُّن والثياب ، دون هدف سام » .

وعندما طلبت إليها أن تساعدني في العثور على خمسة من أصدقائي ورفاقي القدامى جاء الطلب مخيباً لآمالها :

- « أمر مؤسف » ! قالت : « كنت آمل أنك ستطلب مني على الأقل أن أقوم بزرع القنابل » . فضلت ألا ألجأ إلى أساليب المقاومة للوصول إلى هؤلاء الخمسة . لم يكن أحد من أولئك الرجال



الخمسة قد نفي . أحدهم كان ذلك الرجل الذي نقل إلى زوجتي غداة الانقلاب العسكري أنهم سينفذون بي حكم الإعدام أمام بناء الأفلام التشيلية . الآخر أقام في معسكر للاعتقال خلال السنة الأولى من العهد الديكتاتوري وعندما خرج منه عاد إلى ما يشبه الحياة العادية في الظاهر ولكنه في الواقع يكرس حياته للنضال السياسي . أما الثالث فقد أمضى ردحاً من الزمن في مكسيكو ثم عاد بأوراق ثبوتية مزورة ليلتحق بالمقاومة . الرابع كنت معه في مدرسة المسرح وعملنا سوياً بعد ذلك في الأفلام والتلفزيون وهو الآن قائد عمالي نشيط . الخامس سائق شاحنة أمضى سنتين في إيطاليا وهو مؤهل تماماً لمساعدتنا في الفيلم . الخمسة جميعاً بدلوا عناوينهم ووظائفهم وهواياتهم ولم أكن أملك أي مفتاح لمعرفة أمكنة وجودهم . ما يزيد على ألف تشيلي يعيشون هكذا وهم فاعلون في المقاومة يعملون بهوية مختلفة عن تلك التي كانت لهم عام ١٩٧٣ . مهمة كليمنسيا ايزورا أن تمسك طرف الخيط الذي يقود إلى لفّة الخيوط .

اتصالاتها الأولى كانت مهمة وحيوية لمعرفة مواقف واتجاهات أصدقائي القدامى قبل أن أكشف لهم عن وجودي في تشيلي وعن حاجتي لمساعدتهم . لم أستطع قط أن أعرف تماماً كيف استطاعت القيام بما قامت به . لم يكن لدينا الوقت الكافي للحديث قبل أن أغادر تشيلي . لكن الشيء الوحيد الذي قالته لي هو أن لا شيء مما شاهدته في التلفزيون أكثر إثارة من التجارب التي عاشتها أثناء البحث عن أصدقائي الخمسة الذين فقدت أثرهم .

أعرف أنها مشت على قدميها أياماً كاملة عبر تلك الأحياء الشعبية الفقيرة تفتش هناك بالاستناد إلى معلومات أولية كنت قد



زودتها بها . طلبت منها أن ترتدي ثياباً تتناسب مـع أوضاع النـاس الذين ستختلط بهم هناك ولكنها لم تعر ذلك انتباهاً ، وبقيت تختال عبر الممرات المزرية لمنطقة مسلخ سـانتياغـو وكأنهـا في طريقها لتنـاول الشاي والبسكـويت الإنكليزي . لا شـك أن أولئك الـذين اقتربت منهم تلك السيدة الأنيقـة تسألهم عن عنـاوين غير واضحة بفضول مريب تعجبوا من غرابـة مهمتها . ولكن سحـرها الـذي لا يقاوم والدفـء الأصيل الذي توحي به أكسباها الثقـة فوراً . ومـا ان انقضى أسبوع حتى استطاعت أن تحدد أمكنة ثلاثة من الأشخاص الضـائعين بـل وأن تـدعـوهم إلى العشـاء في الـرقم ٧٢٧ حيث استقبلتهم بحفاوة وكأنها تقيم حفلة للطبقة الراقية .

المطاردة الطويلة للجنرال « الكتريك »

بينما كانت كليمنسيا ايزورا تقوم بمهمتها رحت أستفيد من وقت فـراغي لإقامـة صلة مـع الأوسـاط الـرفيعـة المتـدرجـة في السلطة تساعدني لويزا على ذلك .

ذات ليلة بينما كنت أنا ولـويزا نتنـاول العشاء في مـطعم رفيع المستوى ننتظر مبعوثاً (لم يحضر أبداً) دخل القاعة جنرالان تزين صدرهما الأوسمة . حيتهما لويزا من بعيد بطريقة ودية خالصة أثارت في نفسي شكوكاً جدية تجاهها . اقترب أحد الجنرالين من طاولتنا ووقف يثرثر مـع لويزا بضـع دقائق دون أن يعيـرني أدنى انتباه . لم يكن لدي أي فكرة عن رتبته العسكرية لأنني لم أتعلم قط كيف أميز بين نجوم الجنرالات ونجوم الفنادق . حين عاد إلى طاولته أخبرتني لويزا وبصوت منخفض أن طبيعة عملها قد أتاحت لها إقـامة بعض العلاقات المثيرة مع ضباط في الجيش من ذوي الرتب العالية .



وحسب رأي لويزا أن أحد العوامل التي أبقت على بينوتشه في السلطة هو أنه قد أحال على التقاعد أبناء جيله من الضباط وعين بدلاً منهم في المراكز القيادية العليا ضباطاً جداً كانوا أدنى رتبه منه بكثير ، ولم يكونوا أصدقاءه بل بالكاد يعرفونه ، والذين فوق ذلك كله ينفذون أوامره بخضوع كامل . وقد جعله هذا الوقت نفسه عرضة للهجوم . كثيرون من هؤلاء الضباط شعروا أنه لا يمكن اعتبارهم مسؤولين عن مقتل أليندي واغتصاب السلطة وعن تلك السنوات الدموية التي تلت . كانوا يشعرون بأن أيديهم نظيفة ويأملون بالوصول ذات يوم إلى وفاق مع المدنيين للعودة إلى الديمقراطية ، عندما لاحظت ردة فعلي التي تنم عن الدهشة . ذهبت إلى أبعد من ذلك حين قالت : هناك على الأقل جنرال واحد على استعداد ليعلن على الملأ عن الانقسامات العميقة داخل البنية العسكرية المسلحة :

- إنه متلهف للكلام .

هذا الجنرال هز كياني . إمكانية تقديم شهادة مذهلة كهذه في فيلمي الوثائقي بدل طريقة نظرتي للأشياء في الأيام القليلة القادمة . ولكن الجزء السيىء كان أن لويزا لا تستطيع المجازفة بإجراء الاتصال الأولي كما أن ليس لديها الوقت لتجرب إذ عليها أن تسافر إلى أوروبا بعد أيام قليلة مع زوجها في رحلة تدوم ثلاثة أشهر . ومع ذلك فبعد بضعة أيام استدعتني كليمنسيا إيزورا إلى بيتها وأعطتني كلمة سر كانت لويزا قد أرسلتها لي . وهذه الكلمة تمكنني من مقابلة الجنرال « الكتريك » كما سمينا ذلك الضابط المنشق . وأعطتني لعبة شطرنج الكترونية صغيرة علي أن آخذها في اليوم التالي إلى كنيسة سان فرنسيسكو الساعة الخامسة بعد الظهر .



لم أستطع أن أتذكر متى زرت هذه الكنيسة لآخر مرة . الرجال والنساء يجلسون وهم يقرأون الصحف والكتب ، يحيكون الصوف أو يلعبون الورق بشكل إفرادي أو يقومون بحل الكلمات المتقاطعة . عند ذلك أدركت لماذا زودتني لويزا بلعبة شطرنج وكنت قد فكرت بأنها غير مناسبة للذهاب إلى الكنيسة . بعض الناس أيضاً يجلس في ظلال بعد الظهر صامتاً متأملاً (يجلسون في سكينة وكآبة) كأولئك الذين كنت قد لاحظتهم ليلة وصولي . وبالفعل كان التشيليون كذلك قبل الوحدة الشعبية أيضاً . التغيير الكبير حصل عندما عمت البلاد حملة الييندي وظهر أنه يمكن أن يفوز . فوزه قلب البلاد رأساً على عقب في ليلة واحدة . غنينا في الشوارع ، رسمنا على الجدران ، عرضنا مسرحيات وأفلاماً سينمائية في العراء ، الكل يدور في حلقات مزدحمة بغير نظام تعبيراً عن السعادة .

بعد يومين من لعب الشطرنج مع شخصيتي الأرغوائية في الكنيسة سمعت صوت امرأة بالقرب مني . كنت جالساً وكانت راكعة على المقعد خلفي . وهكذا كان صوتها همساً في أذني :

- « لا تنظر إلي ولا تقل شيئاً » قالت ذلك في صوت شبيه بصوت من يعترف للكاهن . احفظ رقم الهاتف وكلمة السر التي سأقولها لك ثم انتظر خمس عشرة دقيقة على الأقل بعد أن أرحل لتذهب أنت .

لم أعرف إلى أن نهضت وتوجهت إلى المذبح الرئيسي أنها كانت راهبة شابة وجميلة . كان علي فقط أن أتذكر كلمة السر لأنني سجلت رقم الهاتف على خشبة الشطرنج بواسطة البيارق . ظننت



أني امتلكت الوسيلة التي تقودني إلى الجنرال الكتريك ولكن أوراق اللعبة وزعت بشكل مختلف . في الأيام التالية ازدادت مخاوفي . ففي كل مرة كنت أتصل أجد الإجابة نفسها : « غداً » .

من يستطيع أن يتصور الشرطة ؟

ذات يوم فاجأني جان كلود بخبر مشؤوم لم يخطر على بالي قط وهو أنه قرأ نبأ لوكالة « فرانس بريس » نشر في الأسبوع الماضي في سانتياغو ، كما نشر في باريس مفاده أن ثلاثة أعضاء من مجموعة تصوير سينمائية تعمل في تشيلي في ظروف مريبة قد اعتقلوا بينما كانوا يصورون في « بولاسيون أوف لا ليفا » دون ترخيص .

اعتبر فرانكي أننا قد وقعنا في الهاوية . أما أنا فقد حاولت أن أتعاطى مع الخبر بهدوء . وكان جان كلود كغيره من الفريق الإيطالي لا يعرف أن مجموعات أخرى تعمل معي . ولكن حذره كان استنتاجاً محضاً . إذ أن اعتقال أحد في نفس وضعه يعني أن الشيء نفسه قد يحدث له . حاولت أن أؤكد له أن هذا لن يؤثر علينا .

فور خروج جان كلود انطلقت لأطمئن على الإيطاليين . وجدت غراتسيا قد عادت من أوروبا وأن الجميع في أمان واطمئنان وأنهم حيث ينبغي أن يكونوا . ومع ذلك فقد أكد إيغو » أن هذا النبأ قد نشر في إيطاليا مع أن وكالة الأنباء الإيطالية عادت ونفته لاحقاً . أسوأ ما في الموضوع أن الخبر حمل الأسماء الحقيقية وانتشر بسرعة إن سانتياغو في ظل الحكم العسكري خليّة من الإشاعات. يتم اختلاق القصص ثم تنتشر بسرعة مذهلة ، يحدث ذلك مرات عديدة في اليوم ، وغالباً ما يكون لها أساس من الصحة



ثم تضمحل وتتلاشى . لم تكن قصة الإيطاليين لتشذ عن هذه القاعدة . لقد كان هناك لغط كبير إلى درجة أنه عندما وصلت المجموعة الإيطالية إلى السفارة الإيطالية لحضور حفل استقبال في الليلة قبل الماضية أكثر من شخصية قدمت لهم التحية، بمن فيهم رئيس مكتب العلاقات العامة الذي قال بصوت مرتفع إلى حد سمعه كل المدعوين :

انظروا ! ها هم سجناؤكم الثلاثة !

كان لدى غراتسيا انطباع بأنهم مراقبون حتى قبل أن تسمع عن النبأ الذي أوردته وكالة الصحافة الفرنسية . وعندما رجع الفريق إلى الفندق بعد حفل السفارة بدا له أن حقائبه وأوراقه قد فتشت . ربما كان هذا وهماً صوره لهم الخوف الكامن في نفوسهم ولكنه أيضاً يمكن أن يكون تحذيراً . وعلى كل حال كان هناك ما يدل على أن شيئاً ما لا بد آتٍ .

أمضيت تلك الليلة مستيقظاً أكتب رسالة إلى رئيس المحكمة العليا في حال تم اعتقالي وكان لا يزال يملك بعض الاستقلالية في ظل الحكم العسكري الديكتاتوري ، أعترف فيها بعودتي غير القانونية إلى بلدي . كتابة هذه الرسالة لم يكن بدافع ولد فجأة وإنما نتيجة تفكير استمر بعض الوقت وقد أصبح الآن هاجساً إذ أخذت الدائرة تضيق من حولنا . وكالغريق الذي يلقي في البحر رسالة وضعها في قنينة اكتفيت بجملة درامية واحدة .

ولكن ما أن بدأت الكتابة حتى أدركت أنه من الواجب إعطاء سلوكي أهمية سياسية وإنسانية جتى أستطيع التعبير عن مشاعر الألاف من التشيليين الذين يحاولون البقاء مواجهين طاعون النفي .



بـدأت الرسـالة بمقـدمات كـاذبة وفي كـل مرة كنت أمـزق ما أكتب : صفحات من الأوراق في غرفة متجهمة في فندق كانت هي نفسها مكاناً لنفي خاص في وطني أنا ، عندما أنهيت الرسالة كانت أجـراس الكنيـسة تقـرع محطمـة صمت منع التجـول داعية النـاس للقداس وخيوط الصباح الأولى تشق طريقها خلال ظلال يوم جديد في ذلك الخريف الذي لا ينسى .



حتى أمي لم تستطع التعرف علي



كانت لدي أسباب وجيهة تدفعني للخوف من أن يكون البوليس عرف بوجودي في تشيلي وعرف بما أفعله . فقد مضى علينا ما يقارب الشهر في سانتياغو . مجموعات التصوير شوهدت تعمل علناً أكثر مما يفرضه الحذر . وقد أقمنا صلات مع مختلف فئات الناس . كثيرون باتوا يعرفون أنني أشرف على الفيلم ، نسيت هويتي الجديدة إلى درجة أني أهملت الكلام باللهجة الأرغوائية وانسجاماً مع نفسي صرت أتعامل على نحو صبياني مع كلمات السر وأقوم بالاتصالات والمغامرات على حساب سلامتي وبشكل عام لم يعد سلوكي شبيهاً بسلوك المناضل السري الحذر .

بادىء الأمر كانت اللقاءات تتم في السيارات وهي تجوب أنحاء المدينة دون وجهة محددة . وكنا نستبدل السيارة كل أربعة أو خمسة أحياء . هذه العملية باتت معقدة إلى الحد الذي كنا نواجه فيه أحياناً مخاطر أسوأ من التي نتوخى تجنبها . ففي إحدى الليالي على سبيل المثال ترجلت من سيارة على الزاوية بين « بروفيدانسيا » و « لوس ليونيس » حيث يفترض أن تقلني بعد خمس دقائق سيارة رينو ١٢ زرقاء اللون تحمل طابع جمعية حماية الحيوان على زجاجها . وصلت في الوقت المحدد تماماً وسيارة رينو زرقاء تماماً ، لم أكلف نفسي عناء النظر إلى الطابع وصعدت إلى المقعد الخلفي حيث تجلس امرأة ليست شابة ولكنها لا تزال جميلة مثقلة بالمجوهرات ، تفوح منها رائحة عطر صارخ ، ترتدي معطفاً زهرياً من فرو المنك لا شك أن كلفته تزيد على ضعفي أو ثلاثة أضعاف ثمن السيارة . إنها نموذج نادراً ما يصادفه المرء ولكنه لا يخطىء فيه للطبقة الأرستقراطية في مجتمع سانتياغو . فتحت فمها بدهشة وهي تراقبني وأنا أدخل السيارة ، أسرعت لأعيد إلى نفسها الطمأنينة بقول كلمة



السر :

ـ « أين أستطيع أن أشتري مظلة في هذه الساعة » ؟

أدار السائق الذي يرتدي بزة خاصة بعمله رأسه إلى الوراء ونبح :

ـ « أخرج من هذه السيارة وإلا استدعيت الشرطة » .

نظرت عندها إلى زجاج السيارة فلم أجد الطابع . أحسست بالدوار لسخف هذا الموقف :

ـ عذراً قلت بصوت منخفض . يبدو أنني أخطأت السيارة .

ولكن المرأة وقد استعادت رباطة جأشها أمسكت بذراعي وطمأنت السائق بصوت واضح ثم سألته :

ـ هل لا يزال فرع مخزن باريس مفتوحاً ؟

أجاب السائق أنه يعتقد ذلك . فأصرت على أن تأخذني إلى هناك لإحضار المظلة . بدت فاتنة ودافئة بقدر ما كانت جميلة حتى ليود المرء أن يبقى بصحبتها لينسى ولو لليلة واحدة القمع والسياسة وحتى الفن . أنزلتني على مدخل مخزن فرع باريس معتذرة أنها لن ترافقني لشراء المظلة لأنها قد تأخرت على زوجها الذي سترافقه إلى حفلة موسيقية .

هذا نموذج من مخاطر الروتين . قللنا من استخدام كلمات السر القائمة على الألغاز للتعارف في لقاءاتنا السرية . كنا نقيم أواصر صداقة مع المبعوثين في اللحظة التي يصلون فيها وبدل أن نباشر العمل كنا نأخذ وقتنا في التعليق على الحالة السياسية ، الفيلم والمشهد الأدبي والأصدقاء الذين نعرفهم سوية والذي أرغب في رؤيتهم على الرغم من التحذيرات لمقاومة مثل هذه الإغراءات .



أحد عناصر الارتباط ربما ليزيد من مظهر البراءة حضر في موعد مع ولده الذي ازدادت حدقة عينيه اتساعاً من الإشارة عندما رآني .

ـ أأنت الذي يصور فيلماً عن سوبرمان ؟

هكذا أخذت أدرك أنه بالإمكان أن يعيش المرء بسرية في تشيلي كما فعل مئات من المنفيين العائدين يمارسون حياتهم اليومية دون أن ينتابهم هذا القلق الذي ألم بي يوم وصولي . وبالفعل شعرت بذلك بشكل قوي ولولا مسؤوليتي بالنسبة للفيلم وواجبي تجاه بلدي وأصدقائي ونفسي لكنت غيرت عملي ومحيطي وبقيت في سانتياغو مرتدياً الوجه الذي أرتديه . ولكن نظراً للشكوك بأن البوليس يراقبنا فإن القليل من التعقل يجبرني على البقاء على ما أنا عليه .

الإذن بالتصوير داخل قصر المونيدا أجل مراراً عدة دون إعطاء أي تفسير لذلك وما زال يؤجل . ما زال علينا أن نصور « بورتو مونت » و « الوادي الأوسط » هذا إذا لم نقل شيئاً عن إمكانية مقابلة الجنرال « الكتريك » المعذبة التي ما أن تدنو حتى تبتعد . إضافة إلى أنني أردت أن أصور الوادي الأوسط بنفسي لأنه المكان الذي ولدت وترعرت فيه حتى مرحلة شبابي . كانت أمي لا تزال هناك في قرية بالميلا الفقيرة ولكن تم تحذيري بشكل جدي ألا اقترب منها في هذه الرحلة لأسباب أمنية .

أول ما قمت به هو إعادة توزيع أعمال الفرق الأجنبية كي يتمكنوا من إنهاء عملهم بأسرع ما يمكن بأقل مخاطرة ليعودوا كل إلى بلده . الإيطاليون وحدهم عليهم البقاء لتصوير قصر المونيدا . المجموعة الفرنسية يتوقع لها أن تغادر بالضبط فور انتهاء مسيرة



الجوع التي ستجري في الأيام القليلة القادمة .

الفريق الهولندي كان ينتظرني في بورتو مونت لتصوير مناطق متاخمة لدائرة القطب الجنوبي وعندما ننهي ذلك يغادرون التشيلي إلى الأرجنتين عند قرية « باريلوتش » الحدودية . ولدى رحيل الفرق الثلاثة عن التشيلي تكون نسبة ثمانين بالمئة من الفيلم قد انجز ووصلت بأمان إلى مدريد للتظهير . وعلى إيلي أن تكون نشيطة إلى الحد الذي تكون فيه الصور جاهزة للمونتاج فور وصولي إلى إسبانيا .

جاء ليتين ، صور ثم ذهب

نظراً لعدم وضوح الأمور في تلك الأيام ، بدا أنه من الأفضل لي ولفرانكي أن نغادر البلاد ثم نعود فندخل بكثير من الحذر . بدت الرحلة إلى « بورتو مونت » لنا فرصة مثالية للقيام بذلك لأنني أستطيع أن أعود إلى التشيلي بالسهولة نفسها التي أصل فيها إلى الأرجنتين . وهكذا طلبت إلى الفريق الهولندي أن ينتظرني في بورتو مونت وتركت إشعاراً لإحدى المجموعات التشيلية أن تكون في وادي « كولتشاغوا » في وسط المدينة . وسافرت أنا وفرانكلي بالطائرة إلى بيونس أيرس . قبل ذلك بعدة ساعات كنت قد اتصلت بمجلة « اناليسيزر » وأجريت مقابلة طويلة مع مراسل لها عن زيارتي السرية إلى سانتياغو . وقد ظهرت هذه المقابلة بعد يومين من رحيلي المقرر من تشيلي وصورتي على غلاف المجلة مع عنوان يخفي مسحة سخرية رومانية :

ليتين جاء فصور ثم رحل . . .



ولكي يبدو كل شيء حقيقياً وصادقاً قامت كليمنسيا ايزورا بإيصالنا بسيارتها إلى مطار « بوداويل » . مثلت مشهد الوداع أفضل تمثيل ، الدموع والعناق الزائدين . وهكذا رحلنا بكل أبهة ملفتة للأنظار ، تم ذلك تحت مرأى ومراقبة أصدقائنا في المقاومة لإخطار من يلزم في حال اعتقالنا . هذا الرحيل كشف لنا أن أسماءنا ليست في لائحة من يجب مراقبة خروجهم في المطار كما أن خروجنا تم تسجيله وعند أي تحقيق لاحق سيتأكد البوليس أننا لسنا في تشيلي .

أبرزت جواز سفري الحقيقي للتعريف عن هويتي في بيونس أيرس لأتجنب ارتكاب عمل غير شرعي في بلد صديق . وبينما كنت أهم بتقديمه إلى موظف دائرة الهجرة الأرجنتينية تنبهت لإشكال لم أفكر بها قبلًا : صورتي على جواز السفر قد أخذت قبل تحولي إلى شخصيتي الجديدة وهي لا تشبه بأي حال شكلي الجديد بحاجبي المنتوفين وصلعتي الواسعة ونظارتي السميكتين . ولقد سبق ونبهت منذ البدء بأن العودة إلى شخصيتي الحقيقية ستكون بنفس الصعوبة التي واجهتني في اكتساب شخصيتي الجديدة ولقد نسيت ذلك في الوقت الذي كان علي أن أتذكره فيه . وهكذا عشت دراما جديدة فلست قادراً على أن أكون نفسي حتى في هذه المرة التي يمكن أن أكونها فيه .

كان على فرانكي أن ينسق بواسطة الهاتف وهو في بيونس أيرس مع إيلي في مدريد التفاصيل الكثيرة من العمل الذي بقي علينا القيام به . وهكذا افترقنا هناك على أمل اللقاء في سانتياغو . استقليت الطائرة إلى مندوزا دون أن أغادر الأراضي الأرجنتينية ، لالتقاط بعض الصور التي كنا قد خططنا لالتقاطها لسلسلة جبال التشيلي . وكان من السهل دخول التشيلي من مندوزا عبر نفق حيث نقاط



الحدود متساهلة . عبرت النفق وحيداً راجلاً أحمل آلة تصوير خفيفة من طراز ١٦ ملم . قمت بما يجب أن أقوم به على الجهة الأخرى وعدت في سيارة شرطي تشيلي لطيف أخذته الشفقة على صحافي أرغوائي مسكين لا يملك وسيلة نقل أخرى تنقله إلى الأرجنتين .

من مندوزا انتقلت إلى باريلوتش ، نقطة الحدود الأخرى والأكثر بعداً باتجاه الجنوب . سفينة عتيقة بالية مكتظة بالسواح الأرجنتينيين والأرغوائيين والبرازيليين والتشيليين نقلتني من هناك إلى الحدود التشيلية عبر مساحة قطبية من تلال الجليد والبحور العاصفة . القسم الأخير من الرحلة كان إلى بورتو مونت حيث استقليت معدية مكسورة الزجاج تدخلها الرياح التي تجمد العروق وهي تعوي كقطيع من الذئاب ، ليس من مكان يتقي فيه المرء هذا البرد القارس . لا شيء يؤكل ولا حتى فنجان قهوة أو كأساً من الخمر أو أي شيء آخر . كانت تقديراتي سليمة ، إذا لاحظ البوليس رحيلي في المطار فمن الصعب جداً أن يتوقع عودتي ثانية إلى التشيلي في اليوم التالي من نقطة تبعد ما يزيد على ٦٠٠ ميل عن سانتياغو .

بعد مدة وجيزة من وصولنا نقطة التفتيش الحدودية تم جمع حوالي ٣٠٠ جواز سفر من الركاب . بالكاد ألقيت عليها نظرة عاجلة . مهرت بالختم ثم أعيدت . قورنت أسماء التشيليين بلائحة طويلة لأسماء المنفيين المحظر عليهم دخول البلاد معلقة على حائط قرب مفتش الهجرة . بالنسبة للأجانب ـ وأنا منهم ـ لم يكن هناك أية مشكلة في اجتياز الحدود إلى أن أمرهم اثنان من الكاربينيرو اللذان لم ألاحظهما بسبب ثيابهما القطبية . أمرنا بفتح الأمتعة . بالطبع كان التفتيش دقيقاً . لم أهتم لأنني ظننت أنني غير معني



بذلك لأنني لا أحمل شيئاً يتعارض مع هويتي المزيفة . ولكن ما أن فتحت حقيبتي حتى تساقطت علب سجائر « الجيتان » الفارغة حيث كتب على الكثير منها ملاحظات تتعلق بالتصوير وتناثرت على الأرض .

كنت وصلت تشيلي ومعي من علب سجائر الجيتان ما يكفي لمدة شهرين . لم أجرؤ على رمي العلب الفارغة الكبيرة المصنوعة من الورق المقوى القاسي والذي يمكن أن يكون موضع شبهة في التشيلي ويعطي البوليس سبباً للتعقب ، لذا احتفظت بها في جيوبي . بعد تدخين سجائرها أثناء العمل كنت أحتفظ بالعلب الفارغة بسبب الملاحظات التي أكتبها عليها . أخيراً جاء الوقت الذي بدوت فيه وكأنني أقوم بألعاب سحرية وأمامي هذه الكمية الهائلة من العلب الفارغة في جيوب ثيابي ، تحت الفراش ، في أمتعتي ، منتظراً الوقت المناسب الذي أستطيع فيه أن أتخلص منها بطريقة مأمونة . وهكذا وقعت ضحية الورطة المضحكة نفسها التي يقع فيها السجناء الذين يحفرون نفقاً للفرار ولا يعرفون كيفية التخلص من التراب !

وكلما كنت أحزم أمتعتي لأتنقل بين الفنادق كنت أفكر بهذه المشكلة ولا أجد لها حلاً أفضل من حمل العلب معي في حقيبتي إذ لو فاجأني أحد وأنا أتخلص منها لبدا الأمر أكثر إثارة للريبة مما هو بالفعل . فكرت أن أتخلص منها في الأرجنتين ولكن الأمور هناك جرت بسرعة فلم أفتح حقائبي إلى أن أجبرت على فعل ذلك على الحدود الجنوبية ولاحظت بخوف رهيب تعابير الدهشة والشك لدى الكاربينيرو وهم يراقبونني وأنا أندفع بذعر لالتقاط العلب المتساقطة المتناثرة .



ـ إنها فارغة ، قلت لهم .

طبعاً لم يصدقاني . راح أصغر الاثنين يهتم بالآخرين من الركاب وقام الأكبر بفتح كل علبة وفحصها من الداخل والخارج محاولاً إيجاد معنى لهذه الملاحظات . هبط علي الوحي لحظة فقلت :

ـ إنها بعض أشعار كنت أنظمها بين حين وآخر .

أكمل تفحصه بصمت ونظر إلي أخيراً ممتحناً وكأنه يحاول إيجاد تفسير للغز علب السجائر الفارغة من تعابير وجهي . فصرخت قائلاً :

تستطيع أن تحتفظ بها إذا أردت .

ـ وماذا سأفعل بها ؟ أجابني .

ساعدني على ترتيبها كلها داخل الحقيبة وانصرف إلى مسافر آخر . كنت شديد الارتباك إلى حد أنه لم يخطر ببالي التخلص منها بإلقائها في القمامة فوراً وعلى مرأى من الكاربينيرو بدل أن أحملها معي بقية الرحلة . عندما عدت إلى مدريد لم أبادر إلى التخلص منها . لقد ارتبطت جيداً بكل تجاربي الشاقة في تشيلي .

خذ صورة عن مستقبل البلاد

كان الفريق الهولندي ينتظرني في بورتو مونت كما هو متفق عليه من قبل . علينا أن نصور هناك ليس لمجرد جمال المشهد الذي يفوق الوصف وإنما أيضاً لأهمية المنطقة في تاريخ التشيلي الحديث . لقد كانت ميدان صراع ثابت ، خلال عهد إدوارد فري كان القمع وحشياً إلى حد دفع ما تبقى من عناصر تقدمية مشاركة في



الحكومة إلى الاستقالة منها . إثر ذلك اتضح لليسار الديمقراطي أن مستقبل المنطقة والبلاد بأسرها يتوقف على الوحدة . وهذا ما فجر العملية السريعة والمتصلبة التي هدأت بانتخاب سلفادور أليندي رئيساً للبلاد .

عندما انتهى التصوير في بورتو مونت حسب البرنامج الموضوع للجنوب سافر الفريق الهولندي إلى بيونس ايرس عبر باريلوتش مصطحباً معه أجزاء كبيرة من الفيلم إلى إيلي في مدريد . أما أنا فقد ذهبت وحيداً إلى « تالكا » في قطار ليلي مريح . لم يحدث في تلك الرحلة شيء يذكر سوى مناوشة صغيرة مع فروج مشوي فعاد إلى المطبخ دون أن يصاب بأذى ، إذ لم أتمكن أن أغرز سناً في جسده المدرع . استأجرت سيارة ذهبت بواسطتها إلى قلب وادي « كولتشاغوا » .

بدت ساحة البلدة كما أذكرها تماماً ، ليس فيها شجرة أو حجر في حائط لم يعيداني إلى طفولتي وخاصة بناء مدرستي القديمة حيث تعلمت القراءة والكتابة . جلست على مقعد لألتقط صوراً أستطيع الإفادة منها في الفيلم . امتلأت الساحة تدريجياً بالأطفال الصاخبين وهم في طريقهم إلى المدرسة . توقف بعضهم أمام آلة التصوير وحاول آخرون رفع أيديهم أمام عدستها . قامت فتاة صغيرة ببعض الخطوات الراقصة بمهارة مما دفعني أن أطلب منها إعادة ذلك للحصول على مشهد أفضل . بعد ذلك أقبل بعض الفتيان وجلسوا قريباً مني وقالوا :

ـ ما رأيك أن تأخذ صورة عن مستقبل البلاد ؟

هذا السؤال بدا مفاجأة لي لأنه كان شبيهاً لما سبق وكتبته على



علب الجيتان : أعتقد أنه ما من فرد في التشيلي إلا وله رأيه الخاص عن المستقبل . هذا الأمر ينطبق بشكل خاص على الأطفال الذين على الرغم من كونهم ينتمون إلى جيل لا يعرف بلداناً أخرى فإن لديهم قناعات ثابتة حول مصيرهم .

كنت قد اتفقت مع الفريق التشيلي أن نلتقي في الساعة الحادية عشرة صباحاً على جسر ماركيز . وصلت في الوقت المحدد إلى الضفة اليمنى فرأيت آلات التصوير وقد نصبت في الجهة المقابلة . كان صباحاً صافياً عابقاً برائحة الصعتر . خالجني شعور بالأمان وشعور أقل بالنفي خاصة وإني في مسقط رأسي لا سيما وأنني كنت قد خلعت ربطة عنق شخصي الأخر والبذلة الإنكليزية وارتديت سترة من جلد الخروف وبنطلون جينز . كما أن متعة إطالة اللحية لمدة يومين أثناء سفري من بيونس ايرس زاد من شعوري بشخصيتي الحقيقية .

عندما تأكدت أن المصور قد قام بتصويري ، نزلت من السيارة ، عبرت الجسر ببطء لأفسح له مجال تصويري أيضاً ثم حييت أفراد الفريق فرداً فرداً وقد هزني حماس هؤلاء الفتيان المبكر . بالكاد بلغوا الخامسة عشر والسادسة عشر والتاسعة عشر . مديرهم ريكادو كان في الواحدة والعشرين وكانوا يدعونه « الرجل الهرم » . لم ألاحظ في تشيلي شيئاً يبعث على التفاؤل أكثر من تلك الثقة التي تضمر نفوس أولئك الفتية .

متكئين على حافة سياج الجسر قررنا التصوير في ذلك الموضع بالضبط وبدأنا العمل على الفور . يجب أن أعترف أنني كنت شارد الذهن في ذلك اليوم إذ تاهت أفكاري عن الهدف الرئيسي وراحت



تلهث خلف ذكريات الطفولة . بدأت تصوير نفس الجسر الذي عندما كنت في الثانية عشرة قامت مجموعة من بنات أعمامي المشاكسات بدفعي عنه إلى الماء كي يعلمنني السباحة أو الغرق .

ولكن وتحت ضغط العمل اليومي عاد هدف الرحلة الأساسي ليفرض نفسه علي ، يشكل وادي سان فرناندو مساحة زراعية واسعة حيث كان الفلاحون عبيداً أرقاء لزمن طويل . صاروا في عهد حكومة الينيدي الشعبية المتحدة مواطنين يتمتعون لأول مرة باحترام كامل لحقوقهم . لطالما اعتبرت هذه المقاطعة معقلاً لحكم الأقلية الإقطاعي الذي كان يستطيع تقرير مصير الانتخابات بواسطة أصوات الفلاحين التي يتحكم بها الإقطاعيون . أول إضراب واسع النطاق للفلاحين نظم هنا خلال حكم إدواردو فري الديمقراطي المسيحي وقد شارك فيه سلفادور الينـدي شخصياً . وعندما استلم الينـدي زمام السلطة فيما بعد ألغى امتيازات رجال الإقطاع ونظم الفلاحين في جمعيات تعاونية متحالفة نشطة . في هذه الأيام وكدليل على عودة التشيلي تاريخياً إلى الوراء يقوم منزل بينوتشه الصيفي في نفس هذا الوادي .

لم أرغب بمغادرة المكان قبل قياس تمثال دون نيقولاس بالاسيوس مؤلف كتاب « العرق التشيلي » . في هذا الكتاب العجيب الغريب يزعم بالاسيوس أن جذور التشيليين الحقيقية تعود إلى مهاجرين من الباسك والإيطاليين والعرب والفرنسيين والألمان وأنهم الأحفاد المباشرين للهيلنيين من اليونان القديمة وأن قدرهم أن يكونوا القوة الرائدة في أميركا اللاتينية وأن يقودوا العالم إلى الحقيقة والخلاص .. ومع أنني ولدت قريباً منه وكنت أراه عدة مرات في



اليوم لم يخبرني أحد من يكون . أوغيستو بينوتشه أكثر المعجبين حماساً لبالاسيوس قام بإنقاذه من الإهمال التاريخي وذلك بإقامة تمثال آخر له في وسط سانتياغو .

مع اقتراب المساء انتهينا من التصوير . الوقت بالكاد يسمح بالعودة إلى سانتياغو قبل بدء حظر التجول وعلينا أن نقطع مسافة تسعين ميلًا : جميع أعضاء الفريق عادوا إلى بيوتهم على الفور باستثناء ريكاردو الذي بقي معي في سيارتي . قمنا معاً بجولة طويلة على الشاطىء لاختيار الأماكن التي سيتم فيها التصوير في الغد . كنا مأخوذين بالعمل إلى درجة أننا مررنا على حواجز التفتيش دون أن نشعر بأي توتر . ولكن وعلى سبيل الاحتياط وبعد الحاجز الأول استبدلت ملابس ميغيل ليتين المدير السينمائي غير الرسمية بثياب نقيضه الأرغوائي المتجهم ، ثم شعرنا بموجة من الهلع عندما لاحظنا أننا في منتصف الليل أي قد مضى نصف ساعة على بدء حظر التجول . طلبت من ريكاردو أن يتحول عن الطريق العام فوراً إلى طريق ترابية تذكرتها وكأنني كنت عليها البارحة فقط . طلبت إليه الانعطاف نحو اليسار ، ثم فوق الجسر ، ثم إلى اليمين نحو ممر ضيق لا يكاد يرى ، ثم أن يطفىء الأضواء ويتابع السير على طريق غير معبد ذي منعطفات حادة وانحدارات مفاجئة . بعد تلك المتاهة سرنا عبر القرية النائمة موقظين كل الكلاب لدى اقترابنا ثم توقفنا أمام منزل أمي .

لم يستطع ريكاردو أن يصدق ـ وما زال ـ أن ذلك لم يكن مقصوداً . ولكني أقسم أنه كان كذلك . الحقيقة هي أنني عندما لاحظت أننا نخالف حظر التجول لم يخطر على بالي سوى حل واحد هو أن نختبىء في طريق جانبي حتى الفجر . ولم أتبين طريق



طفولتي الترابية إلا بعد أن خرجنا عن الطريق العام ، وتعرفت إلى الكلاب النابحة على الجهة المقابلة للجسر ورائحة الدخان المتصاعد من نيران المطابخ فلم أستطع أن أقاوم جموح الرغبة بمفاجأة أمي .

لا شك أنك صديق لأولادي

بالميلا قرية تعداد سكانها ٤٠٠ نسمة لم تتغير منذ أن كنت ولداً ، جدي لأبي فلسطيني ولد في بيت ساحور ، وجدي لأمي اليوناني كريستوس كاكاميدس ، كانا من أوائل المهاجرين الذين استقروا حول محطة سكة الحديد في نهاية القرن . إن أهمية بالميلا الأساسية تكمن في موقعها في نهاية خط السكة الذي يربط الآن سانتياغو بالساحل . إنها المكان الذي يغير فيه الركاب القطار وتحمل الحمولة أو تنزل . عرفت القرية ازدهاراً مؤقتاً من الذهاب والإياب المستمرين . بعد ذلك عندما مُد خط السكة إلى البحر تحولت المحطة إلى نقطة توقف لمدة عشر دقائق من أجل التزود بالماء فقط . ولكن هذا الأمر غالباً ما يتحول إلى مشروع يمتد يوماً كاملاً . تصفر القطارات معلنة قدومها مارة بمنزل جدتي ماتيلد . لم تتوسع القرية أكثر مما هي عليه الآن . شارع واحد طويل تنتشر عليه بيوت متفرقة وطريق جانبي أبنيته أقل . في أسفل القرية هناك مكان يدعى « لاكاليرا » اشتهر بأن كل عائلة فيه تصنع بنفسها خمورها الخاصة الممتازة وكل المسافرين مدعوون للتذوق والحكم أيها أفضل . في وقت من الأوقات أضحت لاكاليرا جنة السكارى في كل أنحاء التشيلي .



كانت ماتيلد أول من جاء بالمجلات المصورة إلى بالميلا ومنذ ذلك الحين وأنا مشغوف بهذا النوع من المجلات . وكانت تسمح لأصحاب السيركات والمسارح المتجولة ولاعبي الدمى باستعمال حديقة منزلها للعرض . هناك شاهدت الأفلام السينمائية النادرة بالنسبة لقرية نائية مثل قريتنا ، وهناك اكتشفت موهبتي بعد مشاهدتي لأول فيلم وكنت في الخامسة من عمري أجلس في حضن جدتي . كان فيلم « جنونا أوف برافانتي » وأنا لا أزال أتذكر كيف كانت ردة فعلي . لقد شعرت بالذهر ومرت علي عدة سنوات قبل أن أعرف كيف تعدو الخيول وتظهر الرؤوس الضخمة على مسطح عريض معلق في الأشجار .

البيت الذي ذهبت إليه أنا وريكاردو تلك الليلة كان في الأصل لجدتي اليونانية وهو المكان الذي تعيش فيه أمي كريستينا كاكاميدس والذي أمضيت فيه طفولتي حتى بلغت عهد الشباب . بني منذ مدة طويلة على النسق الريفي التشيلي التقليدي : ممرات طويلة ، قاعات معتمة بغرف تشبه المتاهة ، مطبخ ضخم قريب من الإسطبلات والمراعي . يقع البيت في منطقة تدعى لوس نارانجوس حيث تنمو البوغنفيلية المعرشة بوفرة وتفوح رائحة النارنج المتدلي في الهواء .

تملكني اضطراب شديد لدى شعوري أنني في منزلي لدرجة أنني قفزت من السيارة قبل أن تتوقف . سرت عبر الممرات الخالية . عبرت الباحة المظلمة ، لم يستقبلني أحد سوى الكلب الأحمق الذي راح يتمسح بقدمي . تابعت سيري فلم أجد أية علاقة تدل على وجود كائن بشري ، ومع كل خطوة تعود بي الذكرى إلى



ساعة معينة من نهار أو رائحة منسية .

في نهاية القاعة الطويلة دسست رأسي في مدخل غرفة الجلوس الخافتة الإضاءة ، أمي كانت هناك .

كان مشهداً فريداً . غرفة الجلوس واسعة ، سقفها عال ، جدرانها عارية ، لا أثاث فيها سوى الكرسي ذي الذراعين الذي تجلس عليه والدتي ظهرها إلى الباب ومنقل الفحم إلى جانبها وكرسي آخر مطابق للأول يشغله أخوها خالي بابلو . كانا جالسين بصمت . علامات الاكتفاء والثقة بادية على وجهيهما وكأنهما يشاهدات التلفزيون ولكنهما لم يكونا ينظران إلى أي شيء . مشيت نحوها محاولاً الا أكون هادئاً وعندما رأيت أنهما لا يتحركات قلت :

- الا يرد أحد التحية في هذا البيت ؟

- لا بد أنك أحد أصدقاء أولادي . قالت أمي : دعني أعانقك .

أما خالي الذي لم يرني منذ أن غادرت التشيلي قبل اثنتي عشرة سنة فلم يتحرك من كرسيه . أما أنا وأمي فقد كنا معاً في مدريد في أيلول الماضي ومع ذلك فإنها عندما وقفت لعناقي لم تستطع التعرف علي . أخذتها بين ذراعي وحاولت أن أهزها برفق لأخرجها من ذهولها .

ركّزت عيناي في عينيها وقلت :

- انظري إلي جيداً يا كريستينا . هذا أنا .

عادت تتأملني جيداًولكنها لم تستطع التعرف علي .

- كلا ! قالت لا أعرف من أنت .

- وكيف يمكنك معرفتي ؟ قلت لها وأنا أكاد أنفجر من



الضحك . أنا ابنك ميغيل .

نظرت نحوي ثانية ، شحب وجهها وصرخت :

ـ نعم ! سأفقد وعيي .

سارعت للإمساك بها كي لا تقع أرضاً . وقف خالي بابلو وهو بنفس الحيرة والذهول :

ـ هذا آخر من كنت أتوقع أن أرى . قال ، أستطيع الآن ومنذ هذه اللحظة أن أموت بسلام .

اندفعت لعناقه . بدا كطائر صغير ، شعره كله أبيض متدثراً ببطانية رجل عجوز مع أنه لم يكن يكبرني سوى بخمس سنوات . لقد تزوج ذات مرة ثم انفصل عن زوجته ليأتي ويعيش في منزل والدتي حيث استقر هنا . كان دائماً رجلاً يحب العزلة وقد بدا كعجوز حتى عندما كان صبياً .

ـ لا تعطني هذا يا خالي ! قلت ، لن تجوز هذه الألاعيب علي . من الأفضل أن تحضر زجاجة خمر ودعنا نحتفل بعودتي .

قاطعتني أمي بواحدة من رؤاها الخارقة للطبيعة :

ـ « الماستال » جاهز قالت .

لم أصدق حتى رأيت ذلك في المطبخ بالفعل . الماستال لون من ألوان الطعام يقدم في البيوت اليونانية في المناسبات الخاصة والأعياد فقط لأن إعداده متعب جداً . يحضر من لحم الضأن والحمص وكريات من السميد فهو يشبه الطبق العربي « الكوسكوس » . إنها المرة الأولى التي تعده أمي هذه السنة لا لمناسبة خاصة . إنه مجرد إلهام .



تناول ريكادو الطعام معنا ثم ذهب لينام كي يتركنا وحدنا . ثم تبعه خالي . أما أنا وأمي فقد بقينا نتجاذب أطراف الحديث حتى الفجر . كنت أنا وأمي نتحدث دائماً كالأصدقاء . عمرنا كان متقارباً جداً . تزوجت في السادسة عشرة من والدي وولدت أنا بعد ذلك بسنة وبالتالي فأنا أتذكرها تماماً عندما كانت في العشرين . كانت جميلة ولطيفة وكانت تعاملني وكأنني أحد لعبها وليس ابناً لها .

بدت مشعة فرحاً بعودتي ولكن طريقة هندامي ثبطت همتها قليلاً :

ـ إنك تبدو كالكاهن . قالت لي .

لم أخبرها سبب ذلك أو لماذا وكيف دخلت تشيلي كي تظن أنني قدمت بصورة شرعية . لقد فضلت أن أبقيها في العتمة فيما يتعلق بمغامرتي كي لا أثير قلقها طبعاً وإنما بشكل خاص كي لا أعرضها للخطر .

قبل بزوغ الفجر بقليل أمسكت يدي . قادتني عبر الباحة دون أن تشرح لي السبب ، وهي تحمل شمعة مضاءة في شمعدان كما في قصص ديكنز . كانت أفضل وأعظم مفاجأة في رحلتي . ففي مؤخرة الباحة رأيت غرفة المطالعة التي كانت في بيتي في سانتياغو تماماً كما تركتها قبل ذهابي إلى المنفى بكل محتوياتها .

إذ بعد أن فتش الجنود منزلي للمرة الأخيرة وكنت أنا في مكسيكو مع إيلي والأولاد ، استأجرت أمي مهندساً معمارياً صديقاً لنا فك مكتبي لوحاً لوحاً ثم صنع نسخة مطابقة لها في بيت العائلة في بالميلا . بدت وكأني لم أتركها أبداً . كل أوراقي ، ألعابي وأنا صبي ، رؤوس أقلام نسخ أفلامي وتصاميم المشاهد كانت هناك كما



تركتها حتى بفوضاها وعدم ترتيبها . بدا لي جو تلك الغرفة مـألوفـاً جداً ، حتى رائحة الجو . شعرت أنه اليوم ذاته والساعة ذاتها عندما وقفت أنظر إلى غرفة مكتبي مودعاً . بعد اثنتي عشرة سنة وأنا أنظر إليها في الحديقـة لم أكن متأكـداً إن كانت قـد بذلت ذلـك الجهد المضني لإعادة بناء مكتبي لكي لا أفقـد بيتي السابق إذا مـا عدت يوماً أو أنه ترك كما هو لكي يتذكـروني إذا ما مت في المنفى .




مكتبة
الفكر الجديد

خاتمة سعيدة للطف البوليس



العودة ثانية إلى سانتياغو كانت هذه المرة عودة إلى العاصفة . الشعور بأن الحلقة تضيق بات ملموساً تقريباً . ضربت الشرطة بوحشية المشاركين في مسيرة « الجوع » ، بمن فيهم عدداً من مصوري مجموعتنا . الأشخاص الذين كنا نعمل وإياهم لديهم انطباع أن تمثيلية مغادرة البلاد التي قمنا بها لن تنطلي على أحد . حتى كليمنسيا ايزورا كانت على قناعة أننا بسطاء سذج يسيرون إلى عرين الأسود . خاب أملنا بلقاء الجنرال « الكتريك » المنشق فالجواب كان باستمرار : « اتصل غداً » . فجأة تم إبلاغ الفريق الإيطالي أنه صدر إذن بالتصوير في قصر المونيدا في الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر اليوم التالي .

كان من الصعب أن نصدق أن الأمر لا يتعدى كونه فخاً . كنت راغباً بخوض المخاطرة ولكني لم أشأ تحمل مسؤولية الطلب من الفريق الإيطالي التوجه إلى مكاتب الرئاسة دون معرفة ما إذا كنا نتوجه إلى كمين . وهكذا وعلى مسؤوليتهم الخاصة قرر عناصر الفريق أن يذهبوا إلى هناك وهم على بينة تامة لما يمكن أن يتعرضوا له من مخاطر . أما المجموعة الفرنسية فلم يكن ثمة داع لبقائها في سانتياغو . عقدنا اجتماعاً طارئاً وطلبت إليهم أن يغادروا في أول رحلة ممكنة مصطحبين معهم كل ما قاموا بتصويره لكي يرسلوه إلى مدريد . وقد سافروا بالفعل بعد ظهر اليوم الذي كان الإيطاليون يقومون فيه بتصوير مكاتب الجنرال بينوتشه .

قبل أن أتوجه إلى قصر المونيدا سلمت فرانكي الرسالة التي كتبتها إلى المحكمة العليا والتي كنت أحملها في حقيبة يدي منذ عدة أيام ولم أكن قادراً على اتخاذ قرار بإرسالها بالبريد . فطلبت إلى فرانكي أن يسلمها باليد فوراً وهذا ما حدث . زودته أيضاً بأرقام



التلفونات التي تركتها لنا إيلينا للحالات الطارئة الملحة . في الحادية عشرة إلا ربعاً أنزلني من السيارة على زاوية كال بروفيدنسيا حيث ينتظرني الفريق الإيطالي هناك واتجهنا جميعاً نحو القصر . المفارقة الكبرى كانت في أنني لم أعد متخفياً كرجل إعلانات أرغوائي بل ارتديت سروال الجينز وسترتي ذات الأطراف من فرو الأرانب . تمَّ التدقيق جيداً بالأوراق الثبوتية لأفراد المجموعة الإيطالية : غراتسيا الصحافية ؛ ايغو الكاميرامان ، وغيدو مهندس الصوت . أما العناصر المساعدة الذين دونت أسماؤهم على طلب الإذن بالتصوير لم يسألوا عن هوياتهم أبداً وهذا ما ساعد على حل مشكلتي فقد دخلت كمساعد يهتم بآلات الإضاءة والأسلاك .

قمنا بالتصوير بهدوء وفعالية لمدة يومين كاملين تحت رقابة ثلاث ضباط شبان دمثين تناوبوا على رعايتنا وإرشادنا . تفحصنا كل شيء له علاقة بترميم البناء . سبق لغراتسيا أن قامت بواجبها جيداً في الكتابة عن « توبسكا » وعن هندسة البناء الإيطالية في التشيلي بشكل لا يستطيع معه أحد أن يشك في غرض فيلمنا . الجنود أيضاً كانوا هناك . وبثقة كبيرة حاضروا فينا عن تاريخ وأهمية كل غرفة في قصر المونيدا والطريقة التي أعيد فيها بناؤها مقارنة مع البناء الأصلي ، محاولين السيطرة على مقتضيات المراوغة والإسهاب لتجنب أية إشارة إلى الحادي عشر من أيلول سنة ١٩٧٣ .

في حقيقة الأمر أنه لولا آثار عهد سلفادور الييندي والممرات العامة فإنه قد أعيد بناء القصر بأمانة تامة للتصميمات الأصلية . بعض المداخل قد أغلقت وأخرى تم فتحها ، جدران هدمت وقرميد نقل من مكان إلى آخر . وقد ألغي المدخل في مورانده ٨٠ حيث كان الرؤساء يستقبلون زوارهم . أما التغيير في الممرات العامة



والمدخل وأبواب الخروج فقد كان كبيـراً إلى درجة أن أي شخص يألف المكان القديم لن يجد طريقه في المكان الجديد .

عرف الضباط لحظة حرجة حين طلبنا إليهم إطلاعنا على وثيقة الاستقلال الأصلية التي عرضت في قاعـة مجلس الوزراء لسنـوات عديدة . فقد كنا نعرف أنها قد أتلفت بفعل القصف . ولكن الضباط لم يعترفوا بـذلك . وعـدونا بـالحصول على إذن خـاص ليتاح لنـا تصويرها فيما بعد ، وكذلك لم يستطيعوا إخبارنـا عن مصير مقعـد دون ديـاغو بـورتاليس وأشيـاء أخرى لـرؤساء سـابقين حفظت عبـر السنين في متحف تاريخي صغير كانت النيران قد التهمته . ولربما لاقت المصير نفسه كل التماثيل النصفية للرؤساء منذ أوهيغنز مع أن هناك إشاعات مفادها أن الحكومة العسكرية قد نقلتها كلها من صالة العرض حيث كانت دائمـاً كي تتجنب وضع تمثـال بينها لسلفـادور أليندي ، الانطباع العام الذي يمكن للمرء أن يخرج به بعـد دورة كاملة في القصر هو أن كل شيء قد تم تغييره لتحقيق هدف واحد ! محو آثار الرئيس الذي اغتالوه .

في حوالي الحادية عشرة من صباح اليوم التالي . وبينما نحن في قصر المونيدا سمعنا فجأة خطوات سريعة لأحذية عسكـرية وقـرقعة معدن . الضابط المرافق لنا بدل سلوكه بسرعة . أمـرنا بشكـل فظ وبإشارة عسكرية قـاسية أن نـطفىء الأنوار ونتـوقف عن التصويـر . اثنان من رجال الحرس السري وقفا أمامنـا . هدفهمـا الواضـح هو منعنا من التصوير . لم نفهم ما الـذي يجري إلى أن رأينـا الجنرال أوغيستو بينوتشه بوجهه المنتفخ المخضر وهو في طريقه إلى مكتبـه يرافقه مساعد عسكري وآخران مدنيان . حدث ذلك بلمحة خاطفة ولكنه مر قريباً منا إلى درجة أننا سمعناه يقول بوضوح أثناء مروره :



« إنك لا تستطيع تصديق امرأة حتى ولو كانت تخبرك الحقيقة » .

وقف إيغو مصعوقاً إصبعه مشلول على زناد آلة التصوير وكأنه يرقب قدره وهو يمر . « لو قدم أحد لقتله » قال فيما بعد « كان الأمر سهلاً » ، ومع أنه بقي لدينا ثلاث ساعات للعمل فإن أحداً منا لم يرغب بمتابعة التصوير ذلك اليوم .

معتوه في مطعم

فور انتهائنا من التصوير في قصر المونيدا غادرت المجموعة الإيطالية البلاد دون أي أشكال حاملة معها ما تبقى من مادة الفيلم . وهكذا أصبح طول الفيلم ١٠٥,٦١٦ قدماً . وبعد تنقيح دام ستة أشهر في مدريد أصبحت النسخة النهائية جاهزة للعرض لمدة أربع ساعات في التلفزيون وساعتين في دور السينما .

ومع أننا قمنا بتنفيذ البرنامج الأصلي وكان علي نظرياً أن أغادر التشيلي فقد بقيت أنا وفرانكي لأربعة أيام أخرى على أمل أن نتمكن من الاتصال بالجنرال « الكتريك » . وحسب تعليمات الهاتف ذهبت إلى المقهى نفسه كل ست ساعات لمدة يومين . كنت أجلس إلى طاولة منتظراً بفارغ الصبر أقرأ نسختي من « الخطوات الضائعة » كتاب كان بمثابة تعويذة أثناء ركوب الطائرة . في موعد اللقاء ما قبل الأخير صلة الاتصال الذي انتظرته طويلاً ، مخلوق ملائكي في الواحدة والعشرين من العمر ترتدي ري مدرسة مقصورة على طبقة معينة للبنات « لاميزونيت » وصلت وزودتني بتعليمات للخطوة التالية تقضي بأن أكون في « شي هنري » وهو مطعم مشهور في « بورتاليز » في تمام السادسة من اليوم نفسه حاملاً معي نسخة من « الميركيريو » وكتاباً هزلياً مصوراً .



وصلت متأخراً لأن مظاهرة سياسية حالت دون وصولي في الوقت المحدد . فقد تشكلت مجموعة من المقاومة غير العنيفة إثر تضحية اسيفادوس بنفسه في كونسبسيون وقد هاجم رجال الشرطة المجموعة بخراطيم المياه بينما وقف مئتان منهم وقد تبللوا حتى العظم جامدين إزاء جدار ينشدون ترانيم الحب . أما أنا فقد جلست في البار متأثراً بعمق المظاهرة اقرأ الافتتاحيات في « الميركيريو » كما أشارت علي الطالبة الشابة متوقعاً أن يأتي أحدهم إلي ويقول : « هل أنت مهتم بصفحات التحرير بشكل خاص » ؟ وكان علي أن أجيب : نعم إنه كذلك . ثم يسألني هذا الشخص : لماذا ؟ وعلي أن أجيب : لأنها تحوي معلومات اقتصادية مفيدة لي في مهنتي . بعد ذلك علي أن أغادر المطعم وأصعد إلى سيارة ستكون في انتظاري على الباب .

كنت أعيد قراءة صفحات التحرير للمرة الثالثة عندما شعرت أن أحد المارين بقربي يلمس ظهري بمرفقه . قلت في نفسي : « إنه هو » . نظرت خلفي ، بدا رجل في الثلاثين ، عريض المنكبين ، يتحرك ببطء ، في طريقه إلى الحمام . فهمت ذلك على أنه إشارة لي كي أتبعه ، لكني لم أفعل لأنه لم يقل كلمة السر . أبقيت نظري على مدخل المرحاض فخرج منه الرجل وقفل راجعاً نحوي ليفعل الشيء نفسه . استطعت الآن أن أرى وجهه جيداً . كانت أذناه كالقنبيط وشفتاه أرجوانيتين وبدت على حاجبيه آثار ندبة .

ـ أنت هناك . مرحبا ! قال لي . كيف حالك ؟

ـ جيد ، أنا بخير ، أجبت .

جلس على المقعد بقربي وخاطبني بإلفة زائدة :



ـ أنت تذكرني أليس كذلك ؟
ـ طبعاً ، أجبت أنا فعلاً أذكرك .

بعد فترة من حديث متبادل على هذا النحو توقفت عن قراءة الجريدة بطريقة واضحة تدل على أنني أتوقع قوله كلمة السر ، ولكنه لم يعر ذلك أي انتباه وبقي جالساً ينظر نحوي فقط . وأخيراً قال :

ـ حسناً ما رأيك بدعوتي إلى فنجان قهوة ؟
ـ طبعاً ! يا صديقي بكل سرور .

طلبت فنجانين من القهوة ولكنهم لم يحضروا لي سوى واحد فقط وضعه النادل أمامنا . قلت له :

ـ لقد طلبت اثنين ، واحداً لهذا السيد ولكنه لم يحضر له شيئاً .
ـ « بالتأكيد » ! أجابني ، سأهتم به حالاً .

ولكنه لم يخدمه والأمر الغريب هو أنه لم يبد عليه أي اهتمام . وغرابة الموقف زادت من توتري . وضع رأسه على كتفي وقال :

ـ هل تعرف شيئاً ؟ أعتقد أنك لا تتذكرني أليس كذلك ؟

عند ذلك قررت مغادرة المكان على الفور .

عند قوله هذا أخرج محفظة جيبه وسحب منها قصاصة من جريدة صفراء عرضها أمامي :

ـ هوذا أنا ، قال .

عندها تعرفت عليه . لقد كان بطل ملاكمة سابق يتذكره الناس في سانتياغو لإصابته بأذى في المخ إثر لكمة تلقاها أثناء الملاكمة أكثر مما يتذكرونه لأمجاده السابقة .

طلبت الحساب كي أنصرف قبل أن تتطور الأمور أكثر من



ذلك .

ـ وماذا عن قهوتي ؟ قال .

ـ تناولها في أي مكان آخر . قلت له ، سأعطيك ثمنها .

ـ أنت تقصد أنك ستعطيني مالاً ؟ أتظن أنني بلغت هذا الدرك السافل ؟ أتحسبني فاقد الكرامة ؟!

وعلا صراخه واتجهت الأنظار نحونا ، أمسكت معصم الملاكم الغليظ بكلتي يدي الكبيرتين وكنت محظوظاً إذ ورثتهما عن أبي وشددت :

ـ اهدأ الآن ، أتفهم ؟ قلت وأنا أنظر مباشرة إلى عينيه :

ـ لا تقل كلمة أخرى .

لحسن الحظ هدأ بالسرعة نفسها التي ثار فيها . دفعت الحساب بسرعة وخرجت في الليل القارس . استقليت سيارة تاكسي إلى الفندق الذي أنزل فيه . وجدت فرانكي قد ترك رسالة لي هناك : نقلت حقائبك إلى ٧٢٧ . كان هذا هو الرقم السري الذي اتفقت أنا وفرانكي عليه كرمز لمنزل ايزورا . ونقله أمتعتي إلى هناك بعد ترك الفندق عنت لي أن الدائرة قد أقفلت . اندفعت خارجا . بدلت تاكسيات عدة مرات ذاهبا في اتجاهات مختلفة . وصلت بيت كليمنسيا ايزورا لأجدها كالعادة تجلس أمام التلفزيون بشكل سماوي رائع تتابع فيلماً لهتشكوك .

إما أن ترحل وإما أن تختفي

ترك فرانكي لي رسالة معها تفيد أن اثنين من المباحث يرتدون الثياب المدنية قدما إلى الفندق للسؤال عنا وقد أخذا معلومات عنا



من سجل الفندق . هذا ما قاله موظف الفندق لفرانكي الذي تظاهر أنه يعتبر ذلك إجراء روتينياً على علاقة بحالة الحصار وأن الأمر لا يهمه . دفع فرانكي الحساب بلا مبالاة وطلب إلى الموظف استدعاء تاكسي تنقله إلى المطار الدولي وشد على يد الموظف مودعاً إياه وأعطاه إكرامية سخية . لكن الأمر لم ينطل على الموظف الذي قال :

ـ أستطيع أن أدلك على فندق لا يمكنهم الوصول إليك فيه .

تظاهر فرانكي أنه لا يعرف ما الذي يشير إليه الموظف .

كانت كليمنسيا ايزورا قد أعدت غرفة لي وصرفت الخادمة والسائق . وأثناء انتظارها وصولي هيأت عشاء فاخراً تحت أضواء الشموع وخمرة فاخرة وموسيقى السوناتة لبرامز ـ ملحنها المفضل ـ أطالت حديثها معي حول قحط حياتها مؤخراً . لم تستطع أن تتقبل كيف أضاعت وقتها في تنشئة أولاد ليكونوا مومياءات وأن تلعب « الكناستة » مع نساء غبيات وأن تقوم بغزل الصوف أثناء مشاهدتها برامج التلفزيون الشجية بعيون دامعة . لقد اكتشفت وهي في السبعين من العمر أن مهنتها الحقيقية هي الكفاح المسلح وحبك المؤامرات وخوض المغامرات الجريئة . قالت :

ـ أفضل أن أواجه الشرطة في معركة في الشارع ملؤها الرصاص الغزير على أن أموت في فراشي بكليتين مهترئتين .

وصل فرانكي صبيحة اليوم التالي بسيارة أجرة مختلفة عن تلك التي كنا نستعملها عادة . أبلغني رسالة مستعجلة استقاها من مصادر ثلاثة منفصلة : « إما أن ترحل وإما أن تختفي » . والجملة الأخيرة معناها الذهاب للمخبأ دون أي فرصة للعمل وهذا ما لم أكن أفكر



فيه . وقد وافقني فرانكلي على ذلك وتمكن من الحصول على آخر مقعدين في طائرة المساء المتوجهة إلى مونتيفيديو .

كان ستار الفصل الأخير يسدل . دفع فرانكي حساب الفرقة التشيلية الأولى واستغنى عن خدماتها في الليلة قبل السابقة مع تعليمات بتسوية الحسابات مع الآخرين . وسلم موفد المقاومة آخر ثلاث بكرات من الفيلم لإخراجها من البلاد بأسرع وقت وقد نفذت هذه المهمة بنجاح كبير إذ عندما وصلت إلى مدريد بعد خمسة أيام وجدت أنها قد وصلت إلى يدي إيلي التي أخبرتني لاحقا أن راهبة شابة فاتنة كالقديسة تيريزيتا قد أحضرتها إلى المنزل ولم تستطع البقاء لتناول الغداء إذ عليها أن تقوم بثلاث مهمات سرية في الصباح قبل أن تعود مساءً إلى تشيلي .

عرفت بعد مدة قصيرة من خلال صدفة غير معقولة أنها الراهبة نفسها التي كانت صلة الوصل في كنيسة سان فرانسيسكو في سانتياغو .

لم أشأ الرحيل طالما أن هناك بصيص أمل في لقاء الجنرال « الكتريك » ، ومع أن الاتصال لم يتم في المطعم ، عاودت الاتصال من بيت كليمنسيا ايزورا بعد الفطور ، جاءني الصوت النسائي نفسه قائلاً لي أن أتصل ثانية بعد ساعتين لنعم أو لا أخيرتين . قررت أنه في حال الحصول على أمر إيجابي قبل موعد الطائرة فإني سأبقى في سانتياغو رغم المخاطرة وإلا فإني سأذهب إلى مونتيفيديو . الحصول على تلك المقابلة أصبح قضية كرامة بالنسبة لي . ستكون خيبة أمل عميقة إن لم أستطع أن أنهي أسابيعي الستة من حسن الطالع وسوئه بانتصار كهذا .



الاتصال التلفوني الآخر الذي قمت به حمل الجواب نفسه :
ـ أعد المحاولة بعد ساعتين .

إذن بقي لي فرصتان قبل أن تقلع الطائـرة . أصرت كليمنسيا ايزورا أن نأخذ معنا مسدساً صغيـراً كالـذي يحمله قطاع الـطرقات العامة كان زوجها يحتفظ به تحت وسادته لإخافـة لصوص الليـل . استطعنا أخيراً إقناعها أنه من غير المستحسن أن نقدم على ذلك .

عندما حان وقت الوداع اغرورقت عيناها بالدموع التي أذكاها شعور بأنه لن يكون بعد الآن مغامرات مثيرة إضافة إلى العاطفـة الصادقـة التي كـانت تكنها لنـا . عملياً كـانت شخصيتي الأخرى بـاقيـة في تشيلي . وضعت حاجياتي الشخصية الضرورية في حقيبة يد صغيرة وتركت الحقيبة الكبيرة عند كليمنسيا والتي تحوي بذلاتي الإنكليزية وقمصاني الموقعة بأحـرف غريبة وربطات العنق الإيـطالية الحسنـة التزويق وكل الكمـاليات الغـاليـة الثمن والتي تعود لأبغض شخص عرفته في حياتي . الأشياء الوحيدة التي احتفظت بها كـانت الثياب التي أرتـديهـا . وقـد نسيتهـا عمــداً بعـد ثــلاثـة أيــام في فنـدق ريو دي جانيرو .

أمضينـا السـاعتين التـاليتين في شـراء هـدايـا تشيليـة لأولادي وللأصحاب في المنفى . اتصلت لـلمرة الثالثة من مقهى آخر قرب بلازا دي ارماس ، وكان الجواب : حاول ثانية بعد ساعتين . ولكن هذه المرة أجاب رجل أعطاني كلمة السر وأخبرني أنه ما لم تحصل الترتيبات خلال تلك الفترة فعلينا أن ننتظر أسبوعين كاملين . وهكذا ذهبنا إلى المطار حيث بإمكاني أن أجري الاتصال الأخير من هناك .

كان السير يـزدحم بسبب أعمال الإصـلاح في أماكن كثيـرة .



إشارات السير لم تكن تعمل كما ينبغي . كثيرة هي المنعطفات وغالباً ما نكون ننعطف بشكل خاطىء . كنت أنا وفرانكي نعرف الطريق إلى مطار لوس سيريللوس القديم وليس إلى مطار « بوداهويل » . فقدنا الاتجاه الصحيح في منطقة صناعية مزدحمة . أخذنا ندور وندور محاولين إيجاد طريقنا للخروج وكنا نسير عكس السير في شارع وحيد الاتجاه دون أن نعرف ذلك عندما التقينا سيارة دورية للكاربينيرو على جانب الطريق .

خرجت من السيارة أريد ضربهم بشدة . ولكن فرانكي تكلم أولاً . فتن الضابطان بحلاوة لسانه وبلاغته الرائعة . لم يدع لهما مجالاً للريبة بشأننا . اندفع بجرأة مختلقاً أكذوبة حول عقد جئنا لتوقيعه مع وزارة المواصلات لإقامة شبكة وطنية لضبط السير في تشيلي بواسطة الأقمار الصناعية . وأظهر كارثة إمكانية إلغاء المشروع بكامله إن لم نصل المطار في غضون نصف ساعة كي تقلنا الطائرة إلى مونتيفيديو . خيم الارتباك على الجميع في البحث عن أسرع طريق تؤدي بنا إلى الطريق العام باتجاه المطار إلى حد أن ضابطي الكاربينيرو قفزا أخيراً إلى سيارتهما وأمرانا أن نتبعهما .

شخصيتان غير مخوَّلتين تبحثان عن مؤلف

وصلنا المطار بسرعة سبعين ميلاً في الساعة نتبع سيارة الشرطة ؛ وصفارتها المدوية وأضواؤها المنارة تشق الطريق أمامنا . اندفع فرانكي إلى مكتب « هرتز » لإعادة السيارة المستأجرة ، وأسرعت أنا إلى الهاتف ، طلبت الرقم نفسه للمرة الرابعة . الخط مشغول . بعد محاولتين اثنتين تلقيت جواباً . ولكن المرأة التي أجابتني لم



تقل شيئاً عن كلمة السر وأقفلت الخط في وجهي بشيء من التبرم . أعدت الكرة ، أجابني صوت الرجل المألوف لدي . تكلم بهدوء ومودة معيداً ما قاله سابقاً أن الفرصة التالية لن تكون قبل أسبوعين . أقفلت الخط بغضب وشعور بخيبة الأمل. لم يبق سوى نصف ساعة لموعد إقلاع الطائرة .

اتفقت مع فرانكي أن أمر أنا أولاً على دائرة الهجرة في الوقت الذي يقوم هو فيه بدفع حساب شركة هرتز كي يتمكن من الذهاب لإبلاغ المحكمة العليا في حال تم توقيفي . ولكنني في آخر لحظة قررت أن أنتظره في الرواق الخالي تقريباً خارج دائرة الهجرة . تأخر أكثر مما ينبغي وبينما كان الوقت يمر لاحظت أن وقوفي هناك أخذ يلفت الأنظار نحوي أكثر فأكثر ، خاصة مع حقيبة اليد الصغيرة وحقيبتين أخريين إضافة إلى رزم الهدايا . وجّه صوت نسائي ، بواسطة مذياع، النداء الأخير للمسافرين على رحلة مونتيفيديو . وبذعر ناولت حقيبة فرانكي مع إكرامية كبيرة إلى أحد الحمالين وقلت له :

ـ خذ هذه الحقيبة إلى مكتب هرتز وأخبر الرجل الذي يدفع فاتورة هناك أنه إن لم يحضر حالاً سأضطر للصعود إلى الطائرة بدونه .

ـ من الأسرع أن تذهب بنفسك . أجابني .

عندها سألت موظفة في الخطوط الجوية : من فضلك أرجو انتظاري دقيقتين لأنادي صديقي الذي يدفع أجرة السيارة التي استأجرها . قالت :

ـ لديك خمس عشرة دقيقة فقط .



أسرعت إلى مكتب هرتز غير مكترث للانطباع الذي يمكن أن أتركه . لقد محا القلق شخصيتي الجامدة الأخرى وعدت المخرج السينمائي الذي كنته دائماً ، فساعات الدرس والتفاصيل التي لا تنتهي والتدريبات الشاقة ذهبت كلها أدراج الرياح في أقل من دقيقتين . وجدت فرانكي يجادل الموظف بهدوء حول فرق العملة .

ـ ماذا تفعل بحق السماء ؟! قلت له : ادفع أي مبلغ وسأنتظرك على الطائرة . لدينا خمس دقائق فقط .

بذلت كل جهد ممكن لأبدو هادئاً . سرت نحو شباك مراقبة الجوازات . تفحص المفتش جواز سفري وحدق في جيداً . ودون أن يرف لي جفن قابلت نظرته . نظر إلى الصورة ثم إلي ثانية . بادلته النظرة . سأل :

ـ إلى مونتفيديو ؟

ـ إلى « طبخ أمي » أجبت .

ألقى نظرة على ساعة الحائط وقال :

ـ طائرة مونتفيديو قد أقلعت .

أكدت له أن ذلك غير ممكن . فسأل موظفة الخطوط التشيلية التي أكدت له بدورها أن الطائرة تنتظرنا قبل أن تقفل الرحلة وأنه لم يبق أمامنا سوى دقيقتين . ختم المفتش جواز سفري ، ثم ابتسم وقال : « سفراً سعيداً » .

ما أن انتهيت من إجراءات جواز سفري حتى سمعت اسمي المنتحل يذكر بصوت عال على جهاز النداء العام . الآن لم يعد لدي أدنى شك . ما كنت أتصوره يقع مع الآخرين سيحدث معي وليس هناك ما أستطيع القيام به على الإطلاق . تقبلت الأمر بشعور



غريب من الراحة . ولكن الأمر لم يكن سوى أن فرانكي الذي كان يدعوني بواسطة مكبر الصوت قد نسي بطاقة سفره معي . كان علي أن أعود إلى المخرج ثانية وأسأل الموظف الذي ختم جواز سفري الإذن بالخروج لأعود ثانية وفرانكي في عهدتي .

كنا آخر من صعد الطائرة . فعلنا ذلك باندفاع طائش حيث لم أتنبه أنني خطوة خطوة كنت أكرر نفس حالة الجنون التي عشتها عندما صعدت الطائرة الذاهبة إلى مكسيكو قبل اثنتي عشرة سنة . جلسنا على آخر مقعدين في الطائرة . في هذه اللحظة كنت أعيش أكثر العواطف تناقضاً . شعرت خلال الرحلة بالحزن والغضب وألم نفي جديد لا يطاق . ولكن لدي أيضاً شعور بالرضى إذ أن كل الذين اشتركوا في مغامرتي خرجوا بأمن وسلام . نداء غير متوقع انبعث من مكبر الصوت في الطائرة أعادني إلى الواقع : « نرجو من المسافرين الكرام إبراز بطاقات سفرهم الآن من أجل التفتيش » .

كان على متن الطائرة مفتشان في ثياب مدنية . يمكن أن يكونا من قبل الحكومة أو البوليس أو الخطوط الجوية . سبق لي وسافرت كثيراً على متن الطائرات ، إنها المرة الأولى التي أسأل فيها عن إبراز بطاقة سفري وأنا داخل الطائرة . كان ذلك يعني أي شيء . مغتماً لجأت إلى عيني المضيفة الخضراوين الرائعتين التي كانت توزع الملبس على المسافرين .

ـ أو ليس هذا غريب جداً يا آنسة ؟ سألتها .

ـ ماذا بمقدوري أن أجيبك يا سيدي ؟ إنه شيء خارج عن إرادتنا .

وكعادته عندما يواجه موقفاً حرجاً سألها فرانكي مازحاً إن كانت



ستبقى هذه الليلة في مونتيفيديو . فأجابته بنفس اللهجة أن يسأل زوجها مساعد قائد الطائرة . أما فيما يتعلق بي فإنني كنت قد وصلت إلى حد لم أطق معه لحظة خزيٍّ واحدة اضطراري العيش داخل شخص آخر . شعرت بدافع أن أقف إذا ما وصل إلي المفتش وأصرخ في وجهه قائلاً : أنا ميغيل ليتين المخرج السينمائي ولا تملك الحق لا أنت ولا أي شخص آخر أن يحرمني العيش في بلدي باسمي ووجهي الحقيقيين . ولكن عندما أتت لحظة الحقيقة فإن كل ما قمت به هو مناولته بطاقة سفري بكل ما استطعته من رباطة جأش منحنياً بذل داخل الصدفة الواقية لشخصيتي الثانية . ولم يكد المفتش يلقي نظرة على جواز سفري حتى أعاده دون أن ينظر إلي .

وبينما كنت أطير فوق ثلوج جبال الأنديز الزهرية بفعل المغيب القادم بعد خمس دقائق أدركت أن الأسابيع الستة التي مرت لم تكن أكثر أيام حياتي بطولة كما توقعت لها أن تكون ساعة وصولي وإنما كانت أهم من ذلك . إنها الأكثر قيمة . في هذا الوقت سيكون بينوتشه تتبعه حاشيته قد خرج من مكتبه ومشى عبر الممرات الطويلة المهجورة بخطى ثابتة ، ونزل السلم المكسو بالسجاد الفاخر وهو يجر وراءه مئة وخمسة آلاف قدم من ذنب الحمار من الفيلم الذي علقناه له ، وفكرت بإيلينا وأنا أشعر بامتنان عظيم .

قامت المضيفة ذات العينين الزمرديتين بالترحاب بنا على متن الطائرة بتقديم الكوكتيل . ودون أن نسألها أخبرتنا : « إن السلطات ظنت بأن راكباً غير مرخص له قد تسلل إلى الطائرة » .

رفعت أنا وفرانكي نظارتينا تحية له . وقلت :



ـ تحية من اثنين قاما بنفس العمل .



خاتمة

في الـوقت الذي قـام فيه الجنـرال أوغيستو بينـوتشه بـانقلاب عسكري ضد حكومة الاتحاد الشعبي لسلفادور الليندي كان ميغيـل ليتين واحداً من أشهر مخـرجي الأفلام في تشيلي وفي سنـة ١٩٧٠ اختاره الـليندي رئيساً لشركة الأفلام الجديدة المؤممة التي تمكن من خـلالها وحـدها صـانعو الأفـلام تحقيق نظريـاتهم حول « الثقـافـة الشعبية » و « القوة الشعبية » وذلـك باعتمـاد وتطويـر أساليب إنتـاج جديد وتوزيع جديد .

تمزج أفلام لينين بين الغنائية السريالية ومشاهد العنف الدموي الضاري والصراع السياسي الحاد . ففيلم « الثعلب » (ذي شـاكال أوف ناهويلتورو) ١٩٦٩ وفيلم الأرض الموعودة (ذي بروميسد لانـد) ١٩٧٣ الذي أكمله في كـوبا همـا وصف قصصي لأحداث حقيقية من التاريخ التشيلي . وهما يعتبران بين أفضل الأعمـال في سينما أميركا اللاتينية الجديدة . ثعلب ناهـويلتورو قصـة فلاح أميّ



يقتل زوجته التي تزوجها بشكل عرفي وأولادها الخمسة . أجبر على ذلك يقول ليتين « للفكاك من حالة رسمية عفنة » ، « الأرض الموعودة » تصور قيام وهدم جمهورية اشتراكية في الثلاثينات وقد فسرت مراراً على أنها قصة مجازية ونقدية لتجربة سنوات الوحدة الشعبية في تشيلي .

كان ليتين قد فر من التشيلي إثر الانقلاب وعاش منذ ذلك الحين في مكسيكو وإسبانيا . « إن وطن المرء هو الذي يولد فيه » قال وهو في زيارة إلى نيويورك سنة ١٩٨٣ «ولكنه أيضاً هو المكان الذي له فيه صديق والمكان الذي يفتقد إلى العدالة والمكان الذي يمكن للمرء أن يسهم فيه بفنه » . من أفلامه : « رسائل من مارازيا » ١٩٧٦ و « السبيل إلى النهج » ١٩٧٨ و « ألزينو والكوندر » ١٩٨٣ وهو إنتاج مكسيكي ، كوبي ، نيكاراغوائي ، كوستاريكي مشترك .

نال تسمية جائزة أكاديمية لأفضل فيلم أجنبي .

تسلل ليتين في أيار الماضي عائداً إلى التشيلي مستخدماً جواز سفر مزيف . وبمساعدة خمس مجموعات من عدة بلدان بما فيها التشيلي وتنقل لمدة شهرين في طول البلاد وعرضها مصوراً بشكل سري خمساً وعشرين ساعة الحياة اليومية ـ والمعارضة ـ في ظل النظام الديكتاتوري .

ـ سوزان لينفلد ـ

الفيلم الأميركي

كانون الثاني ـ شباط ـ ١٩٨٦



مهمّة سرّيّة في التشيلي

